أكرم بركات

مِيزانُ السَّيرِ والسُّلوك



مجموعة يزكيهم

بيت السراج
بيروت | لبنان

اسم الكتاب : ميزان السير والسلوك

الكاتب: الشيخ د. أكرم بركات

الناشر : بيت السراج للثقافة والنشر

الطبعة العاشرة: بيروت ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧م

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مِيزانُ السَّيرِ والسُّلوك

الشيخ د. أكرم بركات

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة على منبر القائم (عجل الله فرجه الشريف)

قضايا تلامس حاجة الناس في الفكر والسلوك

وتضيء على طريق سعادة الإنسان،

وتوضّح برنامجها تناولها الشيخ د. أكرم بركات

على منبر مسجد القائم (عجل الله فرجه الشريف) في الضاحية الجنوبيّة

لبيروت ثمّ ألبسها ثوبَ الكلمات المكتوبة

بين يديك عسى أن تكون محلاًّ للقبول.

مقدَّمة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

والصّلاة والسّلام على الصّادق الأمين محمّد وآله الطّاهرين.

عنوان الكتاب يتألّف من مقطعين: السير والسلوك والميزان، أمّا المقطع الأوّل فهو اصطلاح اشتهر عند أهل التصوّف والعرفان ليعبِّر عند جملة منهم عن منهج خاصّ ومسلك اختصاصي، في حين نراه ينبع من آيات القرآن الكريم ليشكّل منهجاً عامّاً في الحياة الإنسانيّة، لا منهجاً خاصّاً وتخصصياً لبعض الناس.

والمقطع الثاني يُشير إلى أمر هو غاية في الأهميّة، لا سيَّما حينما تختلط الأوراق، وتتعدّد الآراء وتتنوّع المشارب، إنّه المنهج والميزان الذي على أساسه يتعرّف الإنسان

على الحقّ ويُميِّزه من الباطل، ويتعرّف على الصحيح من الخطأ. وكم نحتاج في عصرنا هذا إلى أن نتعرّف على ميزان معرفة الحقيقة، فنوفِّر على أنفسنا الخوض في تجارب نحن في غنى عن الوقوع في سلبيّاتها ومضارِّها.

فميزان السير والسلوك يمثّل المنهج القويم في معرفة الطريق الذي يوصل الإنسان إلى غايته المنشودة، وكماله اللّائق، على أمل أن يوفّقني اللّه تعالى لإنجاز الكتاب التالي حول برنامج السير والسلوك.

أسأل اللّه تعالى أن ينفع المؤمنين بهذا الكتاب الذي جاء صغيراً في حجمه، بسيطاً في لغته؛ ليحقّق حصانة المجتمع في غابة الحياة، وليكون خير درعٍ حافظةٍ من الموبقات، كما أسأله تعالى أن ينفعني به يومَ القيامة، إنّه سميع مجيب الدّعاء.

أكرم بركات

الفصل الأوّل

لماذا خلقَنَا اللّٰه؟

هي صيغ متعدِّدة لسؤال واحد يرتبط بأصل وجود الإنسان، ويحدّد خطواته في هذه الحياة، لذا كان لهذا السؤال الأهميّة الكبرى.

والجواب يجده الإنسان في موضعين:

الأوّل: داخل الوجدان.

الثاني: لوح القرآن.

جواب الوجدان

كلّ إنسان يجد في نفسه حبّاً للسّعادة، فهي الهدف لكلّ الناس بلا استثناء.

وللسّعادة علامة، وهي حصول الاطمئنان والسكينة والأمن داخل الإنسان، كما أنّ للشّقاء علامة، وهي حالة القلق والاضطراب، ولأجل الوصول إلى ذلك الاطمئنان

وتلك السكينة يسعى الإنسان نحو الكمال الذي غرس اللّه حبّه في نفسه منذ طفولته.

ففي تحليل حركة الإنسان، منذ نعومة أظفاره، نلاحظه يسعى نحو هدفٍ يعتقده كماله، فالصغير في بداية نشأته قد يعتقد أنّ كماله يتحقّق حينما يبدأ الحركة بشكل مستقلّ. وبما أنّ الخطوة المتوفّرة له في تلك المرحلة هي الحبو على الأرض، فإنّنا نلاحظه يسعى جاهداً ليحبو؛ لعلّه يحقّق من خلال الحبو كماله. لكنّه حينما يحبو يتعرّف على أنّ الحبو ليس كماله، فيسعى نحو المشي، لعلّه يحقّق من خلاله كماله المنشود، فيمشي على قدمين بعد أن كان يتحرّك على أربع، لكنّه يدرك، بعد هذه المرحلة، أنّه لم يحقّق ذلك الكمال.

حينها ينشد أمراً آخر لعلّه به يحقّق كماله، وقد يظنُّ أنّه النطق والتكلُّم، فيسعى نحو تحقيق ذلك، فيتكلّم وقد يصبح فصيحاً بليغاً، لكنّه يشعر أنّ نار عشق الكمال ما زالت تلتهب في داخله.

هنا قد يجعل له قدوة يظنّ أنّ كماله يتحقّق حينما يصبح مثلها، وقد تكون القدوة أباه أو معلّمه[١] أو قائداً محبوباً، وقد يصل إلى مستوى قدوته بل إلى أعلى منها منزلة، لكنّه يشعر بذلك الظمأ نحو الكمال أنّه ما زال في داخله، وأنّ علامة السّعادة، وهي الاطمئنان والسكينة والأمن، لم تتحقّق في نفسه وروحه.

اشتباه الهدف

ويستمرّ الإنسان كبيراً يبحث عن كماله الذي يحقّق له تلك السّعادة.

* فيتّجه البعض نحو المال معتقداً أنّ الحصول عليه يحقّق كماله، فيسعى جاهداً للحصول عليه، وقد يشقى، وتُمْتَهَنُ كرامتُه، لكنّه يثابر لأجل الحصول عليه، وقد سمعت عن بعض التجّار أنّهم كانوا في

(١) في إحصائية لإحدى الدول أنّ ٣٥٪ من الأطفال يرغبون أن يكونوا مثل معلميهم، وأن يقتدوا بهم، (انظر: بركات، أكرم، كيف تجعل ولدك صالحاً، ط١، بيروت، دار الولاء، ٢٠٠٠م، ص٧٦).

أثناء المواسم التجاريّة يأخذون أدوية منشّطة وطاردة للنوم لأجل الاستفادة القصوى من الموسم التجاريّ للحصول على أكبر نسبة من المال.

وقد يحصل الإنسان على المال الوفير، ويصبح غنيّاً مليئاً ذا ثروة كبيرة، لكنّه لا يحصل على تلك السّعادة التي كان يرجوها.

ألم تسمع بقصّة ذلك الغنيّ الذي احتجّت عليه زوجته بجاره الفقير كيف يعيش مع زوجته السّعادة التي لا يجدانها - وهما ثريَّان- في حياتهما فكان جوابه عمليّاً بأن أعطى جزءاً من ثروته لذلك الجار الفقير الذي أفسدت تلك الثروة حياته وقلبت سعادته وعائلته إلى شقاء؟!

طبعاً ليس كلّ من يحصل على مال يكون هكذا، إلّا أنّ الكثيرين من الأثرياء لا يجدون طعم السّعادة المنشودة، ويبقون يشعرون بالفقر المعنويّ وبالقلق المزعج الداعي لهم إلى أن يفتشوا عن أمر آخر لعلّه يحقّق كمالهم وسعادتهم.

تُرى أين هو سبب السّعادة؟

هنا نُلاحظ أنّ قسماً من هؤلاء الأثرياء يدفعهم عشقهم للكمال إلى التوجّه نحو أمر آخر قد يجدونه في الجاه.

فنرى في المجتمع الكثيرين ممّن قطعوا مرحلة الثّراء ومنهم من قطعها بعد شقاء يصرفون أموالهم الكثيرة في حفلات وولائم ومشاريع بهدف الحصول على المكانة المعنويّة بين الناس والتي يعبَّر عنها بالجاه، ويشعرون بالنشوة حينما تكلَّل بطاقات الدعوة لهم بألقاب الوجاهة، وحينما يجلسون في صدارة المجلس... لكنّ هؤلاء، حينما يصلون إلى مرحلة الوجاهة هذه، يعرفون أنّه لم يواكبها شعور بالإطمئنان، بل إنّ ذلك الجوع المعنويّ والعطش الداخليّ يحرِّكانهم نحو السعي لكمال آخر، لعلّهم به يحقّقون سعادتهم. ترى أين هو محقّق هذه السّعادة؟.

هنا قد يتوجّه قسم من هؤلاء الوجهاء إلى السعي نحو السلطة، كما قد نلاحظ في كثير ممّن رشَّحوا أنفسهم

لرئاسة المجالس البلديّة وكذا في المجالس النيابيّة، فإنّ كثيراً من هؤلاء قطعوا مرحلتي الثروة والوجاهة، وها هم يحاولون ريّ عطشهم الداخليّ من خلال السُّلطة.

ويصل الإنسان منهم إلى رئاسة المجلس البلديّ أو النيابة، لكنّه لا يكتفي بذلك، فيسعى نحو منصب آخر كالوزارة، ويصبح وزيراً، فيسعى نحو الرئاسة، وكما يقول أحد الحكماء: «لو ملك الأرض لتوجّهت عيناه نحو السماء».

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره واصفاً أنفس هؤلاء:

«فهي عندما تبسط لواء قدرتها على قُطر من الأقطار، تتوجّه بنظرة طامعة إلى قطر آخر، بل إنّها لو سيطرت على الكُرة الأرضية برمّتها، لرغبت في التحليق، نحو الكُرات الأخرى للاستيلاء عليها»[1].

(١) الإمام الخمينيّ، الأربعون حديثاً، تعريب السيّد محمّد الغروي، ط١٠، قُمّ، دار الكتاب الإسلاميّ (لا.ت)، ص١٢٦.

كلّ ذلك لأنّ أنفس هؤلاء قد اشتبهت فيما يُحقّق هدفها، فكلّ هؤلاء يسعون نحو الكمال، إلّا أنّهم يخطئون في تحديده وفي ما يتحقّق به.

ومن لطيف ما ورد في هذا أنّ بعض العلماء يرمزون إلى الكمال الذي ينشده كلّ إنسان بـ «**ليلى**» فيقول: كلّ إنسان يسعى نحو ليلى، إلّا أنّ البعض يظنّ أنّ ليلى هي المال فيسعى نحوه، والبعض يظنّها الجاه، فيقبل عليه والبعض يظنّها السلطة، فيتوجّه إليها، والبعض يظنّها ليلى!

لكنّ الجميع لا يجدون ليلى في كلّ ما سعوا نحوه وتوجّهوا إليه وأقبلوا عليه، ترى أين هي «**ليلى**» الحقيقيّة؟

إنّ جميع الناس يقولون بلسان ينبع من الوجدان: «**إنّنا عاشقون للكمال**» فأين نجده؟

هنا ينبرى الشيخ العارف القارئ لتجارب من مضى الإمام روح الله الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ ليجيب هؤلاء بلغته الداخلة إلى القلوب من غير استئذان:

«فيا أيّها الهائمون في وادي الحَيْرة، والضائعون في صحارى الضّلالات، بل أيّتها الفراشات الهائمة حول شمعة جمال الجيل المطلق، ويا عشَّاق الحبيب الخالي من العيوب، والدائم الأزليّ، عودوا قليلاً إلى كتاب الفطرة، وتصفَّحوا كتاب ذاتكم، لتروا أنّ الفطرة الإلهيّة قد كتبت فيها بقلم القدرة ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾»[1].

أجل، إن الإنسان حينما يرجع إلى فطرته يتعرّف إلى أنّ سعيه كان نحو الكمال المطلق الخالي من كلّ عيب ونقيصة، وأن كلّ ما ظنه كمالاً كان خداعاً.

فالكمال المطلق متحقّق في واحد أحد، ألا وهو اللّه ربُّ العالمين، وأن كمال الإنسان وسعادته لا يتحقّقان إلّا حينما يرتبطان بالكمال المطلق.

(١) الإمام الخمينيّ، منهجية الثورة، ص٦.

أَدَرَيْتَ ـ أيها القارئ العزيز ـ معنى قوله تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1]؟!.

بذكر اللّه والارتباط به يصل الإنسان إلى الاطمئنان والأمن والسكينة، فيكون «**مؤمناً**» حقّاً، يعيش الأمن في حياته وتكون نفسه «**النفس المطمئنّة**» ويعيش في حياته لذّة «**السكينة**».

إنّه مشروع سعادة الإنسان الذي رسمه القرآن الكريم.

وحينما يسير الإنسان في هذا المشروع بخطى ثابتة فإنّه يصبح ثابتاً لا تضرّ به عواصف البلاء والمحن، ولا تغيِّره أمواج الثراء والنِّعم.

فقد يكون فقيراً وسعيداً، غنيّاً وسعيداً، مغموراً وسعيداً، وجيهاً وسعيداً، مرؤوساً وسعيداً، رئيساً وسعيداً.

وها هو نبيّ اللّه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يهبه اللّه تعالى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فكان سلطانه يمتدّ ما بين الشامات

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

وبلاد اصطخر[١]، وقد عُلِّم منطق الطير، وسُخِّر له الجِنّ والإنس، كما كانت الريح تجري بأمره، وكان لا يسمع بملك في ناحية الأرض إلّا أتاه حتّى يُذلّه ويُدخله في دين اللّه تعالى.

ومع ذلك كلِّه كان المطمئنّ في ملكه غير متعلق به، فكان يقعد مع المساكين، ويقول: مسكين مع المساكين، وكان إذا جنَّه اللّيل شدَّ يديه إلى عنقه، فلا يزال قائماً حتّى يصبح باكياً، وكان يقول:

«لَتسبيحةٌ في صحيفة المؤمن خير ممّا أُعطي ابن داود ما أُعطي، ابن داود يذهب، وإنّ التسبيحة تبقى»[٢].

* وها هو نبيّ اللّه أيّوب يعيش ذلك الاطمئنان حين كان أباً لأولاد يعيش معهم الهناءة، ومالكاً لأموال يحلم

(١) الراوندي، قطب الدين، قصص الأنبياء، تحقيق اليزدي، ط١، مشهد، مجمع البحوث الإسلاميّة، ١٤٠٩هـ، ص٢٠٨.
(٢) الجزائري، نعمة اللّه، قصص الأنبياء، ط٨، بيروت، الأعلمي، ١٩٧٨م، ص٤١١ـ ٤١٢.

بها الآخرون، وفي ظلّ عافية جسد يملؤه النشاط، ولم يبدِّل اطمئنانه ذلك البلاء الذي حلّ بأولاده وماله وصحة جسده، بل قال حين فقد ماله:

«الحمد لله حين أعطاني، وحين نزع منّي، عرياناً خرجت من بطن أمي، وعرياناً أعود في التراب، وعرياناً أحشر إلى ربّي»[1].

وبمثل هذا كان جواب أيّوب حينما ابتلي بفقدان أولاده:

«إنّهم عباده، وهو أرأف بهم من أبيهم وأمّهم»[2].

وظلّ أيّوب مطمئنّاً حينما لحق البلاء جسده فلم تهزّه كلُّ هذه البلاءات، وبقي مطمئنّاً.

* وها هو خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم عاش سعادته جائعاً في شِعْبِ أبي طالب، ومطارَداً في مكّة والطائف، ومنتصراً في بدر وخيبر، وفاتحاً لمكّة المكرّمة، كما عاش ذلك الاطمئنان مربِّياً للسيّدة الزهراء عليها السلام

(١) الحسني، عبد الصاحب، الأنبياء، ط١، بيروت، الأعلمي، ص٢٤٥.
(٢) بركات، أكرم، محاضرات عاشورائية، ط١، بيروت، دار الولاء، ٢٠٠٠م، ص١٣٦.

أُمّ أبيها عليها السلام وحاملاً لسِبْطَيْه الحسن والحسين عليهما السلام، وفاقداً لولدَيْه القاسم وإبراهيم.

* وها هو الإمام الحسين عليه السلام يسير باطمئنان، ويشعر بالسّعادة الكاملة، إلى حيث شاء اللّه أن يراه قتيلاً، وأن يرى النساء سبايا، كما عاش ذلك الاطمئنان وتلك السكينة، حينما دنا من الشهادة، فسكنت نفسه، وهدأت جوارحه، وأشرق لونه نوراً وبهاءً(١).

* ها هو الإمام الخمينيّ قدس سره يعيش مطمئنّاً في أسرته، وفي مجلس درسه، بل وهو مقيَّد من أعوان الشاه (الساڤاك) الذين جاؤوا ليعتقلوه، والمظنّةُ القتلُ، لكنّه عبَّر عن موقفه، في ذلك الوقت قائلاً:

«أنا لم أخف طول حياتي، حتّى حينما جاء الساڤاك ليعتقلوني لم أخف، بل هم ارتعدوا فصرت أهدِّئ من روعهم».

(١) أنظر: المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ط٣، بيروت، الوفاء، ١٩٨٣م، ج٦، ص١٥٤.

وبقي على ذلك الاطمئنان حينما حلَّ في أرض طهران يستقبله ملايين المحبّين الموالين ينـادون «فليحيَ الخمينيّ» وحينما سئل عن شعوره وقتها قال:

«سواء قالوا فليحي الخمينيّ أو فليمت الخمينيّ، فالأمر عندي سواء».

وهو الذي ودَّع الأمّة في كلمته الأخيرة قائلاً:

«بقلب هادئ وبنفس مطمئنة وروح فرحة وضمير يأمل فضل الله أستأذن الأخوات والإخوة وأسافر نحو المقرّ الأبديّ وأنا بحاجة مبرمة إلى صالح دعائكم».

نعم ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وبالارتباط بالكمال المطلَق والسير على طريقه يصل الإنسان إلى كماله اللّائق بشأنه.

لكن كيف نحقّق معنى ذكر اللّه في أنفسنا لتطمئنّ قلوبنا؟

وكيف نرتبط بالكمال المطلَق لنحقّق كمالنا، ونصل إلى السّعادة المنشودة؟ هلمَّ معي إلى مدخل الجواب الشافي مع جواب القرآن الكريم عن السؤال الأساس: لماذا خلقَنا اللّه؟

جواب القرآن

يجيب القرآن الكريم محدِّداً هدف خلق الإنسان بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

هدف الخلق = عبادة اللّه

والعبادة، في أصل معناها، تطلق على الفعل الذي يكون طيِّعاً ليِّناً ومذلّلاً بحيث لا يكون فيه عصيان ولا مقاومة ولا اعتداء.

ومن هنا سُمِّيت الطريق التي كثر المرور عليها بحيث لم تعد أحجارها وأشواكها تؤذي بل صارت ليِّنة غير شكسة،

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

وغير عاصية «الطريق المعبَّد» أي المسلوك المذلَّل[١].

فعبادة اللّه تعالى تعني طاعته بلين وتذلُّل، وذلك مقابل عبادة غير اللّه والتي عرض القرآن الكريم منها نماذج تظهر في ما يلي:

١. **عبادة الهوى:** قال تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[٢].

فعابد الهوى هو الطيِّع له الليِّن معه، لذلك يكون عصيّاً عاصياً للّه تعالى، فاللّين للهوى يلازمه العصيان للّه.

٢. **عبادة الإنسان:** وقد عرض القرآن الكريم أمثلة لهذه العبادة منها:

أ. **عبادة السلطان:** قال تعالى عن لسان كليم اللّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون:

﴿وتلك نعمةٌ تمنها عليَّ أنْ عبَّدْت بني إسرائيل﴾[٣].

---

(١) انظر: ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، قُمّ، مكتب الاعلام الإسلاميّ، ١٤٠٤هـ، ج٤، ص٢٠٥ـ٢٠٦.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢.

فنبيّ اللّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يصف عمل فرعون أنّه تعبيد لبني إسرائيل، بمعنى إذلالهم بحيث أصبحوا يطيعونه بتذلُّل ولين دون مقاومة بعد أن أجبرهم على ذلك وسلبهم حقوقهم.

ب. عبادة الأحبار والرّهبان: قال تعالى:

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللّه﴾[1].

فقد كان من أهل الكتاب مَنْ أطاعوا رهبانهم وأحبارهم بتذلّل ولين من دون اللّه تعالى.

لذا دعا اللّه تعالى أن تكون الكلمة السواء بين المسلمين وأهل الكتاب هي عبادة اللّه دون عبادة الإنسان، فقال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

وها هي رسالة خاتم الأنبياء ﷺ التي أرسلها إلى ملوك العالم وسلاطينه عام ٥ أو ٦ للهجرة[١] تدعو إلى تحقيق هدف الإنسان وهو: عبادة اللّه.

هدف العبادة

ومن اللّافت أنّ القرآن الكريم لم يعرض عبادة اللّه تعالى كهدف أخير وأقصى لخلق الإنسان، بل عرض العبادة كوسيلة لتحقيق هدف أرقى وأسمى، وهو ما ورد في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢].

فللعبادة هدف ألا وهو التقوى.

هدف الخلق = العبادة	
هدف العبادة = التقوى	

(١) المطهّري، مرتضى، معرفة القرآن، ترجمة الخليلي، بيروت، دار التعارف، ص١٤٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١.

مكانة التقوى وآثارها

وقد بيَّن اللّٰه تعالى مكانة التقوى وآثارها في آيات عديدة:

١ ـ فهي وصية اللّٰه تعالى:

قال عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ...﴾[١].

٢ ـ وهي ميزان الكرامة عند اللّٰه:

قال تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢].

٣ ـ وهي شرط قبول العمل:

قال سبحانه:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٣].

(١) سورة النساء، الآية: ١٣١.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

٤ ـ وهي أفضل اللّباس:

قال عزَّ وجلَّ:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[١].

٥ ـ وهي مفتاح الهداية:

قال تعالى:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾[٢].

٦ ـ وبها يفتح اللّه بركات السّماء والأرض:

قال سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[٣].

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٥.

٧ ـ وبها يرزق اللّٰه ويجعل مخرجاً:

قال تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[١].

٨ ـ وبها يُكَفِّرُ اللّٰه السيِّئات ويجزل الثواب:

قال عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾[٢].

٩ ـ وبها يدخل الإنسان جنَّة اللّٰه:

قال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَر، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٣].

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢ ـ ٣.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ٥.
(٣) سورة القُمّر، الآيتان: ٥٤ ـ ٥٥.

معنى التّقوى

إنّ مفهوم التّقوى ينسجم مع مفهوم اللّفظ المشترك مع التقوى في أصل المادّة، ألا وهو الوقاية التي تعني الحماية. فالتّقوى تحمل معنى المنعَة والحصانة والحماية. ولعلّه لهذا عقّب اللّه تعالى كلامه عن لباس بني آدم بأنّ لباس التقوى ذلك خير؛ لأنّ من وظيفة اللّباس حماية الإنسان، وإيجاد المنعَة والحصانة لجسده من المرض ومن التعرُّض للمشاكل الصحّيّة، فدعا اللّه تعالى إلى التدرُّع بلباس للنّفس والرّوح، وهو لباس التقوى الذي يحمي نفس الإنسان ويقيه ويجعل فيه المناعة، كما يحمي اللّباس الجسد.

من هنا نسب القرآن الكريم التقوى إلى القلوب التي تأتي بمعنى النفوس فقال تعالى:

﴿ذلك ومن يُعظّم شعائر اللّه فإنّها من تقوى القلوب﴾[١].

يقول العلّامة الطباطبائي قُدِّسَ سِرُّهُ في تفسير الميزان، تعقيباً على هذه الآية:

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٢.

«وإضافة التقوى إلى القلوب للإشارة إلى أنّ حقيقة التقوى، وهي التحرُّز والتجنُّب عن سخَطه تعالى، والتورُّع عن محارمه أمر معنويّ يرجع إلى القلوب وهي النفوس وليست هي جسد الأعمال»[1].

يرجع إلى المنَعة والحصانة والحماية؛ لهذا فسَّر أهل البيت عليهم السلام التقوى بمعنى التّرك والرّفض والاجتناب.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام:

«التقوى اجتناب».

وعنه عليه السلام:

«المتَّقي من اتّقى الذّنوب».

وعنه عليه السلام:

«ملاك التّقوى رفضُ الدّنيا»[2].

---

(١) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ط٢، بيروت، الأعلمي، ١٩٧٢م، ج١٧، ص٣٧٤.

(٢) الري شهري، محمّدي، ميزان الحكمة، بيروت، الدار الإسلاميّة، ١٩٨٥م، ج، پ، ص٦٥٦.

وبهذا المعنى يلتقي مفهوم التّقوى بمفهوم الورع الذي هو عبارة عن الكفّ عن المحارم[١] كما هي إحدى درجاته.

ولهذا فُسِّر الورع بتفسير مشابه للتّقوى، فعن أمير المؤمنين عليه السلام:

«الورع اجتناب»[٢].

وعنه عليه السلام:

«الورع أفضل لباس، الورع جُنَّة، عليك بالورع فإنّه خير صيانة»[٣].

وكما أنّ التقوى هي الأساس في قبول العمل، كذلك ورد في الورع، فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«لو صلَّيتم حتّى تكونوا كالأوتار، وصمتم حتّى تكونوا كالحنايا، لم يقبل الله منكم إلّا بورع»[٤].

---

(١) الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق الحسيني، ط٢، بيروت، مؤسّسة الوفاء، ١٩٨٣م، ج٤، ص٤٠١.
(٢) الري شهري، محمّدي، ميزان الحكمة، ج١٠، ص٢٨.
(٣) المرجع السابق، ص٤٢٤ ـ ٤٢٥.
(٤) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٣م، ج٨٤، ص٢٥٨.

هدف التقوى

وعلى كلٍّ فإنّ الهدف من العبادة أن يصل العابد إلى حالة التّقوى والمناعة والحصانة، وحينما يصل إليها فإنّه يصل إلى الهدف الأسمى الذي رسمه القرآن الكريم في آياته، فكما أنّ لخلق الإنسان هدفاً وهو العبادة، وأنّ للعبادة هدفاً وهو التقوى، كذلك للتقوى هدف وهو الفلاح.

وهذا ما نصَّ عليه القرآن الكريم حينما بيَّن هدف التقوى بقوله:

﴿فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

هدف الخلق = العبادة
هدف العبادة = التّقوى
هدف التّقوى = الفلاح

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٠.

والفلاح هو الفوز والظَّفَر، ففلاح المتّقين هو فوزهم بمطلوبهم من الخلاص من عذاب الله والبقاء على دوام رحمته، وهو نوعان: دنيويّ وهو الظَّفَر بما تطيب به الحياة الدّنيا، وأُخرويّ وهو الفوز في دار الآخرة. وقيل: إنّه أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزّ بلا ذُلّ، وعلم بلا جهل[1].

كيف نصل إلى الفلاح؟

وإذا كان الفلاح هدفاً أسمى للتّقوى التي هي هدف العبادة التي هي هدف الخَلْق نعرف القيمة الكبرى لآية من آيات القرآن الكريم التي تتحدّث عن الواصلين إلى مرحلة الفلاح، ألا وهي قوله تعالى:

﴿قد أفلح من تزكى﴾[2].

(١) الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق الحسيني، ط٢، بيروت، مؤسّسة الوفاء، ١٩٨٣م، ج٢، ص٤٠٠.
(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٤.

فتزكية النفس هي ما يحقّق أسمى هدف رسمه القرآن الكريم لخَلْق الإنسان وهو الفلاح.

ومن الكلام المتقدّم يمكن الإجابة عن السؤال المتقدّم: لماذا خلَقَنا اللّه؟ فالجواب هو: «**لتزكية أنفسنا**».

وعند ملاحظة جواب الوِجدان لسؤال: لماذا خلقَنا اللّه؟ ألا وهو الكمال، وجواب القرآن له ألا وهو تزكية النفس، نلاحظ أنّهما ينسجمان إلى حدٍّ كبير.

فالتّزكية من زكّى التي تأتي بمعنى طَهّر، وأيضاً بمعنى زاد ونمّى[1]، كما ورد عن لسان أمير المؤمنين عليه السلام:

«**العلم يزكو على الانفاق**»[2].

أي ينمو و يتكامل.

فتزكية النفس هي نموُّها وكمالها. وبتزكية النفس يحصل الكمال الإنسانيّ.

---

(١) انظر: الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، ج١، ص٢٠٣ ـ ٢٠٥.

(٢) الشهيد الثاني، زين الدين بن مكي، منية المريد، تحقيق الحسيني، بيروت، دار المرتضى، ١٩٩٧م، ص٢٨.

وهـذه النتيجة تتـلاءم مـع مـا يقوله أهـل التصوّف والعرفان من أنّ الكمال الإنسانيّ يتحقّق بالسير والسلوك.

ولبيان هذا التلاؤم والانسجام بين مصطلحي التزكية والسير والسلوك، نوضح المقصود من المصطلح الأخير.

السير والسلوك

جرت العادة أن يُتناول اصطلاح السير والسلوك من قبل المتصوِّفة وأهـل العرفان حتّى بات الكثير يعتقد أنّه اصطلاح خاصّ بهم لا يتعدَّاهم، والمتتبِّع لكلماتهم يُلاحظ معنىً خاصّاً قصدوه. إلّا أنّ منشأ هذا الاصطلاح ليس خاصاً، بل إن انبثاقه من القرآن الكريم انبثاق طبيعي و واضح.

فقد دأب القرآن الكريم على ذكر طريق اللّه تعالى طالباً من الإنسان تارة أن يهديه إليها، وأخرى أن يسير فيها ويسلكها.

وقد وردت تسمية هذه الطريق بعنوانين: السّبيل والصّراط، وهذا ما توضحه الآيات التالية:

سبيل الله

١. ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ...﴾[١].
٢. ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ...﴾[٢].
٣. ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾[٣].
٤. ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً...﴾[٤].
٥. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ...﴾[٥].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٧.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٠٠.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

٦. ﴿... وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ...﴾[١].
٧. ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا...﴾[٢].

الصّراط

١. ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ...﴾[٣].
٢. ﴿إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ...﴾[٤].
٣. ﴿... وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ...﴾[٥].
٤. ﴿وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا...﴾[٦].
٥. ﴿قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ...﴾[٧].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.
(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٦.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥١.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٠١.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٢٦.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٤٢.

٦. ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[١].
٧. ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...﴾[٢].
٨. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣].
٩. ﴿صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[٤].

الفرق بين الصّراط والسبيل

والمتتبِّع لكلمتيِ السبيل والصّراط في القرآن الكريم يُلاحظ فارقَيْن بينهما.

الأوّل: أنّ كلمة السبيل استعملت لسبيل اللّه وسبيل غير اللّه بخلاف كلمة الصّراط التي لم تستعمل إلّا في صراط اللّه تعالى.

(١) سورة يس، الآية: ٦١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٥٣.

ومن أمثلة استعمال كلمة السبيل لغير سبيل اللّٰه الآيات التالية:

١. ﴿وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾[١].

٢. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾[٢].

٣. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾[٣].

٤. ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٤].

فالملاحظ في هذه الآيات أنّ كلمة السّبيل استعملت في سبيل المجرمين الكافرين والطاغوت والجاهلين، على خلاف كلمة الصّراط التي لم ترد منسوبة إلى غير اللّٰه تعالى.

الثاني: أنّ كلمة السّبيل وردت في القرآن الكريم بصيغة الجمع «**سُبُل**» بينما لم ترد كلمة الصّراط إلّا مفردة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٥.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ٧٦.
(٤) سورة يونس، الآية: ٨٩.

١. ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾[١].

٢. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢].

٣. ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ﴾[٣].

ويفهم الشهيد الشيخ مرتضى مطهري من جمع كلمة «**السبيل**» في بعض الآيات وبقاء كلمة الصّراط مفردة، أنّ هذا يعود إلى أنّ معنى سبيل اللّه هو الطريق الفرعي المؤدّي إلى الهدف الإلهي، فهناك طرق فرعيّة كثيرة تؤدّي إلى ذلك الهدف. أمّا الصّراط فهو الطريق المركزيّ الرئيسيّ، والذي تصبُّ فيه تلك السُّبُل، لذا أفرد الصّراط وجمع السّبيل[٤].

وعلى كلّ حال فإنّ ما تقدّم يبيِّن منشأ اصطلاح السير والسلوك، فالزخم السابق لآيات السبيل والصّراط ينبثق منه

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٢.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٥.
(٤) المطهّري، مرتضى، معرفة القرآن، ترجمة الخليلي، بيروت، دار التعارف، ص١٥٥.

بشكل واضح أنّ المطلوب الإلهي من الإنسان هو أن يسير على صراطه وفي سبيله، وأن يسلك هذا الصّراط والسبيل، وأن يتجنَّب سلوك السبل الأخرى التي هي لغير اللّه تعالى.

ومن لطيف ما ورد في هذا أنّ الرّسول الأكرم ﷺ كان جالساً وحوله جمع من الناس، فراح ﷺ يرسم خطوطاً على الأرض، وكان واحدٌ منها مستقيماً، والخطوط الأخرى غير مستقيمة، وحينما تساءل الناس عن الهدف من رسم النبيّ هذا، قال ﷺ:

«هذا خطّي دون باقي الخطوط».

ونتيجةً لما تقدّم يمكن الإجابة عن السؤال السابق: لماذا خلَقَنا اللّه؟ بثلاثة أجوبة تصبُّ في خانة واحدة وهي:

* خلَقَنا اللّه تعالى لأجل الوصول إلى الكمال الإنسانيّ.
* خلَقَنا اللّه تعالى لأجل تزكية أنفسنا.
* خلَقَنا اللّه تعالى لأجل السير والسلوك في سبيله وعلى صراطه.

يبقى السؤال الثاني والمُلِحّ:

كيف نصل إلى هذا الكمال؟ كيف نزكّي أنفسنا؟ كيف نسير في سبيل اللّه وعلى صراطه؟ لنحقّق بهذا هدف وجودنا وغاية خلقنا.

هذا ما يجيب عنه ما يأتي من هذا الكتاب فهلُمَّ بنا إليه.

الفصل الثاني

ميزان السير والسلوك

اتجاهات في السير والسلوك

اتّفق المسلمون على أهمّيّة تزكية النفس ومكانتها وأنّها تحقق السير الصحّيح في سبيل اللّه وسلوك صراطه سبحانه وتعالى، إلّا أنّهم اختلفوا في كيفيّة هذه التزكية التي تُوصِل إلى الغاية المنشودة. والاختلاف بينهم لم يقتصر على الناحية النظريّة بل تعدّاها إلى الجانب العمليّ، ممّا أظهر اتجاهات عمليّة متعدّدة في كيفية تزكية النفس، والسير إلى اللّه تعالى. ونعرض هنا، بعض هذه الاتّجاهات:

١ ـ طريق التزكية = إرهاق الجسد

فقد اعتقد بعض الناس أنّ السير والسلوك يتحقّق عبر إرهاق الجسد، بل تعذيبه بالمجاهَدات والرّياضات، وذلك لإضعاف سطوته، والحطّ من سلطانه. وهذا الاتّجاه فيما

يبدو كان موجوداً في الأمم السابقة على الإسلام، وإن كان قد أخذ شكلاً خاصّاً في كلّ أُمَّة[١].

وقد ظهر هذا الاتّجاه في المجتمع الإسلاميّ في أشكال متعدّدة، وظهر اسم «**الصوفيّة**» لإحدى الفرق التي كان يلبس أتباعها الصوف والملبس الخشن حتّى في حرِّ الصيف، مجتنبين لبس الناعم من الثياب زهداً وإعراضاً عن الدنيا[٢].

وتنقل في هذا الاتّجاه قصص غريبة عجيبة، فقد نُقِل عن أحد الشيوخ الذين كانوا يريدون تطويع أنفسهم على القيام في اللّيل دون كسل أنّه ألزم نفسه القيام على رأسه طول اللّيل[٣].

(١) انظر: وجدي، محمّد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، بيروت، دار الفكر، ج٥، ص٥٨٥.
(٢) انظر: المطهّري، مرتضى، الكلام العرفان، تعريب عليّ خازم، ط١، بيروت، الدار الإسلاميّة، ١٩٩٢م، ص٨٦.
(٣) الحائري، كاظم، تزكية النفس، ط١، قُمّ، مؤسّسة الفقه، ١٤٢١هـ، ص١٤٣.

٢ ـ طريق التزكية = السقوط من أعين الناس

فقد اتجهت بعض الفرق المنسوبة إلى الصوفيّة إلى أنّ طريق التزكية هي السقوط من أعين الناس، والهدف هو السلامة من آفات الجاه والرّياء، فاتجه هؤلاء إلى تحقير أنفسهم وشرفهم أمام المجتمع ولو بارتكاب كبائر الذنوب لأجل أن يحقّقوا هدفهم(١).

ومن عجيب ما نُقل من قصص هؤلاء ما حكاه أبو حامد الغزالي عن ابن الكريني أنّه قال: «**نزلت في محلّة فعُرِفتُ فيه بالصّلاح، فدخلت في الحمّام، وغيّبتُ عليَّ ثياباً فاخرة، فسرقتها ولبستها، ثمّ لبست مرقعتي فوقها، فخرجت أمشي قليلاً قليلاً، فلحقوني فنزعوا مرقعتي، وأخذوا الثياب، وصفعوني، فصرت بعد ذلك أُعْرَفُ بلصِّ الحمّام، فسكنَتْ نفسي**»!!!

(١) انظر: المطهّري، مرتضى، الكلام العرفان، تعريب خازن، ص١٢٢.

قال أبـو حامد: فهكذا كانوا يروِّضون أنفسهم حتّى يخلّصهم اللّه من النظر إلـى الخلق، ثمّ من النظر إلى النفس وأرباب الأحوال.

ومن قصص هؤلاء أنّ بعضهم كان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس، ليعوِّد نفسَه الحِلْم[١].

٣ـ طريق التزكية = العزلة

فقد اعتقد بعض الناس أنّ تزكية النفس بحاجة إلى الاختلاء والعزلة والابتعاد عن وضع المجتمع، فبالعزلة يبتعد الإنسان عن الدنيا ونعيمها وزخرفها لينصرف إلى عبادة اللّه، وقد بنى أصحاب هذا الاتّجاه الصوامع في أمكنة بعيدة عن النساء ليتعبدوا فيها[٢].

٤ـ طريق التزكية = أذكار لسانيّة

فقد اعتبر بعضهم أنّ تزكية النفس تتحقّق من خلال

---

(١) الحائري، كاظم، تزكية النفس، ص١٤٥.
(٢) انظر: المطهّري، مرتضى، الكلام العرفان، تعريب خازم، ص٨٦.

أوراد وأذكار لسانيّة يكرِّرها السالك، ولا يسمح بالشروع فيها من دون إذناً أستاذ خاصّ؛ لأنّ ذلك كحكم الأدوية، أحدها مضرّ، وآخر نافع[١].

سؤال مُلِحّ

إنّ ما تقدّم وهو بعض الاتّجاهات الكثيرة في السير والسلوك- يشكّل منشأً لسؤال ينطلق من الناظر إليها وهو يريد بصدق أن يزكي نفسه ويسير في طريق كماله.

فأيَّ طريق يسلك؟

أيعتمد على إرهاق جسده؟ أم يعمل ما يُسقط به من أعين الناس؟ أم يعتزل المجتمع؟ أم يتّجه نحو الأذكار؟ أم يتّخذ طريقاً آخر من طرقٍ تعدَّدت وتنوّعت وتباينت فيما بينها؟

هل هذه الطرق كلّها صحيحة؟ أم كلّها باطلة؟ أو بعضها صحيح، والآخر باطل؟

(١) انظر: بحر العلوم، محمّد مهدي، رسالة في السير والسلوك، تعليق حسن المصطفوي، ترجمة لجنة الهدى، ط١، بيروت، دار الروضة، ١٤١٤، ص١٢٥.
(ملاحظة يشكك جملة من المحققين في نسبة هذه الرسالة إلى السيّد بحر العلوم).

ترى من يجيب عن هذا السؤال؟!

أيُعقل أنّ اللّه تعالى الحكيم لم ينصب لنا ميزاناً ومعياراً ومرجعاً لنحدّد فيها الطريق الصحيح الذي به يتحقّق هدف وجودنا دون الطرق الباطلة؟ كلّا، وحاشا للّه أن يترك الناس بدون ذلك الميزان.

وكيف يتركهم بدونه ونحن ـ العقلاء ـ نجزم ونقطع بعيب الدعوة التي يدعوك فيها إنسان إلى منزله، لكنّه لا يُرشدك إلى عنوانه لا بكلام، ولا بخريطة، ولا بمرشد ونحو ذلك؟

إذاً ما هو هذا الميزان الذي من خلاله نعرف الطريق الصحيح من الطريق الباطل، لتزكية أنفسنا ولسيرنا في سبيل اللّه ولتحقيق كمالنا الإنسانيّ؟

الميزان = القرآن

الجواب في عنوانه الأوّل واضح. إنّ الميزان والمعيار والمرجع في ذلك هو كتاب اللّه تعالى، القرآن الكريم، ألمّ

يسمِّه اللّه تعالى فرقاناً لأنه يفرق بين الحقّ والباطل، فقال تعالى:

﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾[١].

أجل إنّ القرآن هو الميزان والمعيار، ولكن قد يعلِّق البعض على هذا الجواب بأنّ القرآن الكريم هو دستور للحياة، ولكنّه لم يحتوِ كلّ تفاصيلها بحيث يفهم ذلك إنسان يطّلع عليه، ولو سلَّمنا بأنّ فيه أو منه تستخرج كلّ التفاصيل المطلوبة لحياة الإنسان، فإنّ أكثر الناس لا يستطيعون استخراج تلك التفاصيل منه. وما يدعم وجهة النظر هذه أنّ ما ذُكِر من اتجاهات سابقاً وغيرها أيضاً كلّها تنسب إلى هذا القرآن الكريم، وأصحابها يدَّعون انسجام اتجاهاتهم مع هذا الكتاب العزيز. من هنا كان لا بدّ من تحديدٍ أكثر وأوضح للميزان المطلوب والذي من خلاله يحدَّد الفهم الواضح لآيات القرآن الكريم. فما

(١) سورة الفرقان، الآية: ١.

هو الذي يكمّل الجواب السابق ليكون، بضميمة القرآن ميزاناً ومعياراً أو مرجعاً نحدّد على أساسه طريق التزكية الصحيحة، من الطرق الباطلة؟

الميزان = القرآن + الرسول ﷺ

والجواب عن هذا السؤال يأتي أيضاً من القرآن الكريم الذي أرجع بشكل واضح تفاصيل الرّسالة الإلهيّة، إلى خاتم الأنبياء وسيّد المرسلين محمّد بن عبد اللّه ﷺ فقال تعالى: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[(١)].

إذاً السؤال عن ميزان السير والسلوك يتوجَّه إلى خاتم الأنبياء ﷺ، فما هو هذا الميزان يا رسول اللّه؟

بين يدي الرسول ﷺ لمعرفة الميزان

لقد أجاب نبيُّنا الأكرم ﷺ وبيَّن الميزان بكلام واضح، وأمام ملأ عظيم يتعدَّى مئة ألف مسلم ليكون هذا الميزان

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

متواتراً على مدى الأيّام والعصور، فهو مقياس الحقّ والباطل للشريعة التامّة الخالدة التي طالما حلم وسعى نحوها الأنبياء والأولياء عبر التاريخ.

لقد بيَّن ذلك الميزان وهو ينظر بعلمه اللّدنيّ إلى الماضي والحاضر والمستقبل من سنّته المباركة التي أكملت مع القرآن الكريم كلّ الرسالة بتفاصيلها الدقيقة التي لم تترك فراغاً سلبيّاً حتّى في حكم بقيّة الطعام بين الأسنان فورد حكمه فيها، إن هذه السُنَّة واجهت موانع عديدة في انتشارها الكامل بين كلّ الناس بما يحفظها عبر الأجيال، فمرحلة تبليغ هذه السُّنّة المتضمّنة لأحاديث الرسول الأكرم ﷺ وأعماله الشريفة، وتقريره وإمضائه لأعمال غيره، لم تسنح لها سِنو مكّة الثلاث عشرة أن تنتشر بين الناس، وكيف تلقى الانتشار المطلوب، ولم يؤمن بالنبيّ ﷺ في مكّة إلّا عدد قليل لم يتجاوزوا أربعماية مسلم على الأكثر[1]، وكان أغلبهم من المستضعفين

(١) المطهّري، مرتضى، الإمامة، ترجمة عليّ كسّار، ط١، مؤسّسة أم القرى، ص٧٧.

المضطهدين ممّا أدَّى إلى هجرة الكثير منهم (٧٠ عائلة) إلى الحبشة مرتين، وبالتالي انفصالهم عن تلقّي الدعوة الإسلاميّة المباشرة من النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذه السنوات المكّية كان المشركون يضيِّقون على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين الباقين معه ضيقاً شديداً، ويمنعونه من تبليغ دعوته للآخرين، حتّى وصل الأمر بهم إلى محاصرتهم مع جملة من الهاشميّين في شِعْب أبي طالب ثلاث سنوات حيث كانت المجاعة الشديدة...

إنّ الناظر في هذه المرحلة المكّيّة يُدرك بوضوح أنّ الفرصة لم تسنح للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلَّا بتبليغ أساسيّات الاعتقادات والبعض من جوانب الشريعة، كما يُلاحظ القارئ الآياتِ القرآنيّة النازلة في مكّة.

وممّا يؤكِّد هذا الواقع أنّ فريضة الصوم، وهي من أوائل فروع الدين، لم تنزل في مكّة، بل في المدينة.

في المدينة

وانتهت هذه السنوات المكّيّة بهجرة النبيّ ﷺ إلى يثرب ليقضي فيها عشر سنوات كانت مليئة بالحروب والغزوات وما شابه، إضافة إلى الخلافات التي حصلت بين القبائل من داخل المجتمع الإسلاميّ الجديد. وقد سجَّل التاريخ في الفترة المدنيَّة النبويّة وقوع أكثر من ثمانين معركة وغزوة، وإرسال سرايا وما شابه، وكان النبيّ ﷺ هو القائد العسكريّ لها.

ومن الواضح أنّ هذه الحروب والغزوات شكَّلت معوِّقات أمام تبليغ تفاصيل الشريعة الإسلاميّة والسُّنَّة النبويَّة الشريفة.

يقول الشهيد المطهّري:

«وإذا أردنا أن نغضّ النظر عن الواقع الكائن في مكّة والمدينة، ونفترض أنّ رسول الله ﷺ سَلَك في هذه السنوات الثلاث والعشرين من البعثة نهج المعلِّم الذي لا شأن له إلّا الذهاب إلى الصفّ وتعليم الناس، فمع ذلك لم يكن هذا الوقت وافياً كي يُبيِّن

النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للناس جميع ما ينطوي عليه الإسلام، فكيف إذا أضفنا لذلك التاريخ القائم (الذي امتصَّ جلَّ أوقات النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم) خصوصاً بشأن دين كالإسلام يبسط حاكميّته على جميع شؤون حياة البشر»[١].

الحلّ = ولاية الحُجَج عليهم السلام

إذاً لا بدَّ من حلٍّ يتسنّى من خلاله للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلِّغ ويحفظ سنّته الشريفة التي تمثّل مع القرآن الكريم توأم التشريع الكامل.

فكان الحلّ الإلهي يتمثّل بتربية إلهيّة لشخصٍ استثنائيّ يكون وعاءً لعلم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ومستودَعاً لسنَّته وحافظاً للدين الحنيف. وكان هذا الشخص هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فكان محلَّ الفيض الإلهي والتعليم النبويّ.

وهذا ما يعطينا التفسير الواضح لتلك الجلسات الطويلة بين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ عليه السلام وتلك الملازمة الشديدة بينهما

---

(١) المطهّري، مرتضى، الإمامة، ترجمة كسَّار، ط١، قُمّ، مؤسّسة أم القرى، ص٧٧.

والتي كان يعبِّر عنها أمير المؤمنين بقوله:

«ولقد كنت أتّبعه اتّباع الفصيل أثرَ أمّه».

وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول:

«إذا سألت رسول اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أجابني وإن فَنِيَتْ مسائلي ابتدأني»[1].

وأكَّدت الروايات أنّ هذا التعليم الخاصّ كان بأمر إلهي. فقد رُوِي أبو نعيم الحافظ الشافعيّ (ت ٤٣٠هـ) بإسناده عن رسول اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

«يا عليّ، إنّ الله (عزَّ وجلَّ) أمرني أن أدنيك وأعلّمك لتعيَ وأُنزلت هذه الآية ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ وأنت أُذُن واعية للعلم»[2].

---

(١) الصفّار، بصائر الدرجات، قُمّ، بصيرتي، ص١٩٨.
انظر كتابنا «حقيقة مصحف فاطمة عند الشيعة»، ط١، بيروت، دار الصفوة.
(٢) حلية الأولياء، ط١، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤٠٩هـ، ج١، ص٦٧.
- الجويني، فرائد السمطين، تحقيق المحمودي، بيروت، مؤسّسة الرسالة، ١٤٠٩هـ، ج١٣، ص١٣٦.
- العلامة الحلي، كشف اليقين، تحقيق عليّ آل كوثر، ط١، قُمّ، مجمع إحياء الثقافة الإسلاميّة، ص٥٢.
- انظر كتابنا «حقيقة مصحف فاطمة عند الشيعة»، ص١٤٦.

ولأجل هذا الدور الإلهي في إكمال تبليغ الشريعة الإلهيّة والسُّنَّة النبويّة حدَّد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّ للشريعة مدخلاً وأنّ لعلمه باباً من أراد أن يغترف لا بدّ أن يدخل منه فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها»[(١)].

بعد الإمام علي عليه السلام:

ولم تكن فترة حياة أمير المؤمنين عليه السلام - لا سيَّما بالظروف التي أحاطت بها - كافية لأداء هذا الدور الكبير في إكمال تبليغ السُّنَّة النبويّة، فخزَّن أمير المؤمنين عليه السلام تفاصيل الشريعة الطاهرة في الحسن والحسين عليهما السلام ليكونا المرجع التشريعيّ - بالمعنى المتقدّم - للناس. وهذا ما يكشف لنا سرَّ قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الذي اشتهر عنه:

«الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[(٢)].

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، بيروت، دار إحياء التراث، ج٥، ص٦٣٧.
- الحلي، كشف اليقين، ص٥٧، الأربلي، كشف الغمة، بيروت، دار الكتاب الإسلاميّ، ج١، ص١١٣، الهندي، كنز العمال، ج١٣، ص١٤٨، القندوزي، ينابيع المودة، بيروت، الأعلمي، ص٧٠.

(٢) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج١٠، ص٧٨.

بعد الحسنَيْن عليهما السلام

وشاءت الإرادة الإلهيّة أن تنتقل هذه السُّنَّة المطهَّرة من صدور طاهرة إلى صدور طاهرة، بعد أن يقوم كلّ إمام بدوره الرائد، فأودع الحسين عليه السلام علوم الإسلام في ابنه زين العابدين عليه السلام وهو في الباقر عليه السلام، والباقر عليه السلام في الصّادق عليه السلام، والصّادق عليه السلام في الكاظم عليه السلام، والكاظم عليه السلام في الرضا عليه السلام، والرضا عليه السلام في الجواد عليه السلام، والجواد عليه السلام في الهادي عليه السلام، والهادي عليه السلام في العسكري عليه السلام، والعسكري عليه السلام في قائم أهل البيت الحُجّة المهديّ عجل الله فرجه الشريف، لتكتمل به سلسلة النور، وليكون أئمة أهل البيت عليهم السلام مع القرآن توأم التشريع الذي خلّفه رسول اللّه وأمر أمّته بالتمسّك به.

ميزان التزكية على لسان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم

من هنا حدّد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للأمّة جمعاء ميزاناً لسيرهم

وسلوكهم ولتحقيق هدف وجودهم بقوله المتواتر بين المسلمين:

«إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، ولن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض»[١].

إذاً الميزان الذي رسمه خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم هو: الكتاب + أهل البيت عليهم السلام.

والمتأمّل في هذا الحديث لا سيَّما لعطف أهل البيت عليهم السلام على كتاب اللّه تعالى، يُدرك أنّ المراد الأساس من أهل البيت عليهم السلام هنا هو المتن الدينيّ ليكون هو الميزان والمعيار والمرجع لتحديد الحقّ من الباطل، فالمتن الدينيّ الأوّل هو كتاب اللّه، وهو كما تبيَّن سابقاً بحاجة إلى متمِّم له، والمتمِّم وهو السُّنَّة النبويّة المطهَّرة، وهذه السُنَّة المباركة بتفاصيلها الكاملة حفظت في الوعاء المطهَّر لأهل بيت

(١) ابن جرير، الطبري، محمّد، المسترشد في إمامة أمير المؤمنين، تحقيق المحمودي، ط١، قمّ، مؤسّسة الثقافة الإسلاميّة، ١٤١٥هـ، ص٥٦٠ (انظر كتاب «حديث الثقلين» الذي طبع في القاهرة من قبل دار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، وقد جمع فيه أسانيد هذا الحديث في كتب أهل السنة).

العصمة عليهم السلام فهم حفَظَتُها وخزَنَتُها ومبلِّغوها، لذا كان من نافلة القول عند بعض علمائنا أنّ ما نُقل من طرق بعض أهل السنّة أنّ النبيّ قال: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وسنّتي» بدل «وعترتي» لا يبدِّل مقصود النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنّ سنَّته المباركة لا توجد إلّا في عترته الطاهرة.

الثّقَلُ الأكبر والثّقَلُ الأصغر

إذاً المراد من هذا الحديث المتواتر هو تحديد المتن الدينيّ الذي يكون هو المعيار والميزان والمرجع. من هنا نفهم السرَّ في وصف كتاب الله بالثّقل الأكبر، والعترة بالثّقل الأصغر في بعض نصوص حديث الثَّقَلين كالنص الوارد:

«إني مخلِّف فيكم الثَّقَلين، الثَّقَل الأكبر القرآن، والثَّقَل الأصغر عترتي وأهل بيتي، هما حبل الله الممدود بينكم وبين الله عزَّ وجلَّ ما إن تمسكتم به لن تضلُّوا»(١).

(١) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ط٣، بيروت، دار الوفاء، ١٩٨٣، ج٩٢، ص١٠٢.

فإرادة المتن الديني تفسِّر الوصفين الآنفين، إذ الآيات القرآنيّة هما الثَّقَل الأكبر وأحاديث أهل البيت عليهم السلام (إضافة إلى أفعالهم وتقريرهم) هما الثَّقَل الأصغر.

حبل اللّه

ومن لطيف هذا الحديث، التعبيرُ عن هذا الميزان (الكتاب والعترة) بحبل اللّه، فإنَّ من شؤون الحبل أن يُتَمَسَّك به للنجاة، وأيضاً أن يُصْعَدَ بوساطته نحو الأعلى. وهذا يتناسب مع ما تقدَّم من الاستعمال القرآنيّ المكثّف لكلمتي الصّراط والسّبيل؛ فالحبل هو سبيل وصراط لكنّه عاموديّ وليس أفقيّاً، ولعلّ هذا التعبير بالحبل يحمل المعنى الأدبيّ الراقي للسير والسلوك باتجاه الكمال؛ إذ هو سير صعوديّ، يشترك مع السير الأفقيّ بالحركة المنطلقة من السائر، ويمتاز منه بأنّ المتمسك بالحبل قد يُرفع مع حبله ليصل نحو المبتغى، فتكون سرعة الوصول أكبر وأرقى.

سلام اللّه على أهل بيت العصمة حينما كانوا يقولون:

«واللّه نحن الصّراط»[١].

وعلى كلٍّ، فإنّ الميزان الذي حدَّده رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم هو القرآن وأهل البيت عليهم السلام ، أو فقُل هو كتاب اللّه تعالى وسنّة رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم المتمثِّلة بشكل أساس بأحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام .

وعليه فإنّ السؤال عن ميزان التمييز بين السير الحقّ والسير الباطل، التزكية الصحيحة والتزكية الخطأ، يأتي جوابه من أحكام الدين والشرع الحنيف، الموجودة في الكتاب والسُنَّة، في القرآن والعترة.

فالشريعة الإسلاميّة المنبثقة من هذين المصدرين هي الميزان.

(١) المشهدي، محمّد، تفسير كنز الدقائق، تحقيق العراقي، قُمّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، ١٤٠٧هـ، ج١، ص٦٠.

وتستمرُّ الأسئلة

وعليه، إن كان الجواب بأنّ الميزان هو الشريعة، كما تقدّم، فإنّ السؤال الأساس الذي طرحه من أراد جدّاً السير والسلوك وتزكية النفس، لا ينقطع عند المقطع السابق من الإجابة؛ لأنه قد يسأل بإلحاح: كيف لي أن أتعرَّف على هذا الميزان وهذه الشريعة بشكل واضح؟ فأهل البيت الشهداء عليهم السلام بقيَّتُهم الأعظم غائب، ندعو اللّٰه بتعجيل فرجه ليكفينا مؤونة السؤال بل الأسئلة الكثيرة.

وأحاديث أهل البيت عليهم السلام التي تشكّل مع القرآن المتن الدينيّ الكامل - بصفتها الحاكية عن السُّنَّة النبويّة المطهّرة - منتشرة في مئات الكتب التي تزخر بها المكتبة الإسلاميّة، فكيف لي أن أتعرَّف، من خلال هذا التراث الضخم، على ما صحّ من الأحاديث الواردة عنهم عليهم السلام وأن أقارن بينها، لأتعرّف على الشريعة الحقّة بموضوعيّة ومنهج سليم؟

الجواب

إنّ من الواضح أنّ هذا الأمر يتسنَّى ويتحقّق لمن تخصَّص في دراسة القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، بعد أن حصَّل المقدِّمات العلميّة التي تحتاج هذه الدراسة إليها، فوصل إلى مرحلة تمكِّنه من فهم الشريعة برؤية واضحة، بعد ذلك الجهد العلميّ الكبير الذي خاضه للوصول إلى هذه النتيجة، وهذا الإنسان المتخصّص هو الذي يُسمَّى بالفقيه والمجتهد.

وقد أُسِّست الحوزات العلميّة الشريفة بهدفٍ أساسٍ هو التخصُّص في هذه الدراسات لفهم الإسلام، وبالتالي تخريج الفقهاء.

فالفقيه المجتهد يحمد اللّه تعالى على توفيقه الكبير لوصوله، من خلال نتائج اجتهاده، إلى معرفة الميزان الذي من خلاله يميِّز السلوك الحقّ من السلوك الباطل.

معرفة الميزان عند غير المجتهد

ولكن يا ترى ماذا يفعل بقيّة الناس الذين لم يصلوا إلى مرحلة الاجتهاد ـ وهم الأكثر ـ ليتعرّفوا على هذا الميزان، لا سيَّما في الموارد التي لا يستطيعون فيها الاحتياط؟

إنّ الجواب المنطقيّ والذي بنيت عليه السيرة الاجتماعيّة العقلائيّة هي أنّ من لم يتخصّص في تلك الدراسات التي يتوقّف عليها فهم الإسلام والشريعة المطهَّرة، عليه أن يرجع إلى المتخصّص فيها، ويعتمد عليه في نتائجه التي توصَّل إليها.

وكما يقول الشهيد السعيد محمّد باقر الصّدر:

«كل مكلّف يريد التعرّف على الأحكام الشرعيّة يعتمد أوّلاً على بداهته الدينيّة العامّة، وما لا يعرفه بالبداهة من أحكام الدين يعتمد في معرفته على المجتهد المتخصّص، ولم يكلف الله تعالى كلّ إنسان بالاجتهاد، ومعاناة البحث

العلميّ من أجل التعرّف على الحكم الشرعيّ توفيراً للوقت وتوزيعاً للجهد الإنسانيّ على كلّ حقول الحياة، كما لم يأذن الله سبحانه وتعالى لغير المتخصّص المجتهد بأن يحاول التعرّف المباشر على الحكم الشرعيّ من الكتاب والسُّنَّة، ويعتمد على محاولته، بل أوجب عليه أن يكون التعرُّف على الحكم عن طريق التقليد والاعتماد على العلماء المجتهدين»[١].

معرفة الميزان عبر التقليد

إذاً طريق الفقيه إلى معرفة الشريعة التي هي الميزان هو اجتهاده واستنباطه، وطريق غير الفقيه إلى معرفة هذا الميزان هو تقليده الفقيه في نتائجه التي توصَّل إليها.

(١) الصدر، محمّد باقر، الفتاوى الواضحة، ط٦، بيروت، دار التعارف، ص٩٠.
انظر لمعرفة تفاصيل التقليد: بركات، أكرم، لماذا نقلد، كيف، من، بيروت، دار الولاء.

من هنا كان توجيه أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ نحو تقليد الفقهاء.

فعن الإمام الحسن العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ.

«فأمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه فللعوامِّ أن يقلِّدوه»[1].

ومن هنا ـ أيضاً ـ نفهم سرّ تأكيد أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على مكانة العلماء والفقهاء ودورهم.

فعن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«من كان من شيعتنا عالماً بشريعتنا، فأخرج ضعفاء شيعتنا من ظلمة جهلهم إلى نور العلم الذي حبَوْناه به، جاء يوم القيامة على رأسه تاج من نور يضيء لأهل تلك العرصات وحُلّةٌ لا يقوم لأقلِّ سلكٍ منها الدنيا بحذافيرها، ثمّ ينادي منادٍ: هذا عالم من بعض تلامذة آل محمّد، ألا فمن أخرجه في الدنيا

---

(١) الحُرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة، تحقيق الشيرازي، ط٥، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣هـ، ج١٨، ص٩٥.

من حَيْرة جهله، فليتشبَّث بنوره ليخرجه من حَيْرة ظلمة هذه العرصات إلى نزهة الجنان»[(١)].

ومن التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ..﴾.

إلى قوله:

﴿وَالْيَتَامى﴾[(٢)].

قال الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«أما قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْيَتَامى﴾ فإنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: حثَّ الله تعالى على بِرِّ اليتامى لانقطاعهم عن آبائهم، فمن صانهم صانه الله ومن أكرمهم أكرمه الله ومن مسح يده برأس يتيم رفقاً به جعل الله تعالى له في الجنّة بكلّ شعره مرّت تحت يده

(١) الشهيد، الثاني، زين الدين بن علي، منية المريد، تحقيق الحسيني، بيروت، دار المرتضى، ١٤١٨هـ، ص٣١، ٣٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

قصراً أوسع من الدنيا بما فيها، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلَذّ الأعين، وهم فيها خالدون».

قال الإمام عليه السلام:

«أشدُّ من يتم هذا اليتيم يتيمٌ انقطع عن إمامه لا يقدر على الوصول إليه، ولا يدري كيف حكمه فيما يُبتلَى به من شرائع دينه، ألا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا فهدى الجاهل بشريعتنا المنقطع عن مشاهدتنا، كان كمن أخذ يتيماً في حِجْره، ألا فمن هداه وأرشده وعلمه شريعتنا كان معنا في الرفيق الأعلى، حدّثني بذلك أبي عن أبيه عن آبائه عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم»[(١)].

خلاصة ما تقدّم

إنّ الميزان والمعيار لتحديد السير الحقّ من السير الباطل، ولمعرفة الطريق الحقّ لتزكية النفس يتمثّل

(١) الشهيد الثاني، منية المريد، ص٣١.

بالشريعة المنبثقة من القرآن الكريم والسُّنَّة الطاهرة والتي ظهرت في أحاديث أهل البيت عليهم السلام الحاكية عن سُنّة جدِّهم الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأنّ طريق الوصول إلى هذه الشريعة لعامّة الناس هو اتّباع الفقهاء المتخصّصين في دراسة هذه الشريعة، وذلك بالالتزام بالأحكام الشرعيّة، وهي ما يُطلق عليها وتُسمَّى بـ«**ظاهر الشريعة**».

الميزان = ظاهر الشريعة

إنَّ أيّ انحراف عن الأحكام الشرعيّة هو انحراف في السير والسلوك، وإنَّ أيَّ مخالفة لظاهر الشريعة في بداية السير والسلوك أو أثنائه هو انحراف عن سبيل اللّه وعن صراطه المستقيم.

ميزان السير والسلوك على لسان الإمام الخمينيّ قدس سره

وهذا ما أكَّده العارف الكبير والفقيه المتألِّه الإمام الخمينيّ قدس سره حنيما قال:

«واعلم... أنّ طيّ أيّ طريق في المعارف الإلهيّة لا يمكن إلّا بالبدء بظاهر الشريعة، وما لم يتأدّب الإنسان بآداب الشريعة الحقّة لا يحصل له شيء من حقيقة الأخلاق الحسنة، كما لا يمكن أن يتجلّى في قلبه نور المعرفة، وتتكشف العلوم الباطنية، وأسرار الشريعة، وبعد انكشاف الحقيقة، وظهور أنوار المعارف في قلبه، سيستمرّ أيضاً في تأدبه بالآداب الشرعيّة الظاهريّة».

ويتابع الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ ما رسمه من ميزان فيقول:

«ومن هنا نعرف بطلان دعوى من يقول: (إنّ الوصول إلى العلم الباطن يكون بترك العلم الظاهر)، أو (إنّه وبعد الوصول إلى العلم الباطن ينتفي الاحتياج إلى الآداب الظاهريّة).

وهذه الدعوى ترجع إلى جهل من يقول بها، وجهله بمقامات العبادة ودرجات الإنسانيّة»[1].

---

(١) الخمينيّ، روح الله، الأربعون حديثاً، ترجمة الغروي، قُمّ، دار الكتاب الإسلاميّ، ص٢٥.

ويطبِّق الإمام قدس سره هذا الميزان على العبادات التي دعا الله تعالى إليها فيقول في عبادة الحجّ العظيمة:

«هي رأسمال من أُفق التوحيد والتنزيه، وسوف لن نحصل على النتيجة ما لم ننفّذ أحكام وقوانين الحجّ العباديّة بشكل صحيح ولائق وشعرة بشعرة»[(١)].

خلاصة الميزان في كلام الإمام الخمينيّ قدس سره

البدء بالسير والسلوك لا بدّ أن يكون بظاهر الشريعة، والاستمرار بالسير والسلوك لا يكون إلّا بظاهر الشريعة والتأكيد على أنّ الميزان هو ظاهر الشريعة كان في قبال من ادعى أنّ المطلوب هو الوصول إلى الحقيقة بأيّ وسيلة كانت، ومع الوصول إلى هذه الحقيقة لا يعود هناك أهميّة للالتزام بالأحكام الشرعيّة، فتسقط هذه التكاليف

(١) الخمينيّ، روح الله، أبعاد الحج، ط١، بيروت، جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة، ١٤٢٢هـ، ص٢٠.

الظاهريّة ليعيش الإنسان السالك في دائرة الحقيقة التي وصل إليها.

إنّ الإمام الخمينيّ قدس سره يؤكِّد أنّ هذا انحراف في السير والسلوك، فالالتزام بظاهر الشريعة هو الوسيلة في بدء السير والسلوك، وهو الوسيلة الدائمة والباقية فيهما.

تطبيقات على ضوء الميزان

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾

بعد أن عرفنا ميزان السير والسلوك وتزكية النفس وأنّه ظاهر الشريعة، يمكن لنا الاستفادة من هذا الميزان للحكم على حالات يمارسها البعض باسم السير والسلوك، ونعرض فيما يلي أمثلة من تلك الحالات.

الحالة الأولى

يدَّعي البعض أنّ السير والسلوك لأجل الوصول إلى الحقيقة يبدأ بالتوبة، وبما أنّ التوبة تكون ـ عادة ـ من

ارتكاب المحرَّم، فإنّ هذا يبرِّر ارتكاب السالك ما حرَّمه الله تعالى في بداية سيره، وبعده يتوب إلى الله تعالى فيحصِّل أوّل خطوة في سيره وسلوكه ليكمّله في الخطوات اللّاحقة، وهذا الاتّجاه هو الذي أشار إلى بطلانه الإمام الخمينيّ قدس سره في الحديث السابق حيث ذكر أنّه لا يمكن طيّ أيّ طريق في المعارف الإلهيّة بهذه الوسيلة المخالفة للشريعة الحنيفة.

وهذا الاتّجاه المنحرف عن جادّة الحقّ والصّواب كان في المجتمعات السابقة على الإسلام المحمّديّ، كما يظهر ذلك من خلال القصّة التي وردت على لسان الإمام جعفر الصّادق عليه السلام والتي يقول فيها:

«كان عابد في بني إسرائيل لم يقارف من أمر الدنيا شيئاً، فنخر إبليس نخرة فاجتمع جنوده، فقال: من لي بفلان بن فلان؟ فقال بعضهم: أنا له، قال: من أين تأتيه؟ قال: من ناحية النساء،

قال: لست له، لم يجرّب النساء، قال آخر: فأنا له من ناحية الشراب واللّذّات؛ قال: لست له، قال آخر: فأنا له من ناحية البِرّ، قال انطلق فأنت صاحبه. فانطلق إلى موضع الرجل فأقام حذاه يصلّي، قال: وكان الرجل ينام والشيطان لا ينام، ويستريح والشيطان لا يستريح، فتحوّل إليه الرجل وقد تقاصرت إليه نفسه، واستصغر عمله فقال: يا عبد الله بأيّ شيء قويت على هذه الصّلاة؟ فلم يجبه. ثمّ أعاد عليه، فقال: يا عبد الله إنّي أذنبت ذنباً وأنا تائب منه، فإذا ذكرت الذنب قويت على الصّلاة؛ قال: فأخبرني عن ذنبك حتّى أعمله فأتوب، فإذا فعلته قويت على الصّلاة قال: ادخل المدينة وسل عن فلانة البغيّة فأعطها درهمين، ونل منها، قال: ومن أين لي درهمان؟ ما أدري ما الدرهمان. فتناول الشيطان من تحت

قدمه درهمين، فناوله إيّاهما قال: فقدم المدينة بجلابيبه فسأل عن منزل فلانة البغيّة، فأرشده الناس، وظنّوا أنّه جاء يعظها، فأرشدوه، فجاء إليها بالدرهمين؛ فقال: قومي، فقامت ودخلت منزلها، وقالت: ادخل، وقالت: إنك جئتني في هيئة ليس يؤتى مثلي في مثلها، فأخبِرنْي بخبرك، فأخبرها، فقالت له: يا عبد الله إنّ ترك الذنب أهون عليك من طلب التوبة، وليس كلّ من طلب التوبة وجدها. وإنّما ينبغي أن يكون هذا شيطاناً مثّل لك، فانصرف. وماتت من ليلتها، فأصبحت فإذا على بابها مكتوب حضّروا فلانة؛ فإنّها من أهل الجنّة. فارتاب الناس ومكثوا ثلاثاً لا يدفنونها إرتياباً في أمرها. فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى نبيّ من الأنبياء، ولا أعلمه إلّا موسى بن عمران عليه السلام إنّه إئت (فلانة) فصلِّ عليها؛ ومُرِ الناس أن يصلّوا

عليها فإنّي قد غفرت لها، وأوجبت لها الجنّة بتثبيتها فلاناً عبدي من معصيتي»[١].

الحالة	الحكم	السبب
الابتداء بالمحرَّم	انحراف	خلاف الشريعة

ولعلَّ من أبشع الانحرافات المُدخَلة في ما سمِّي بالسير والسلوك هو ما سمعته عن بعض الجهلة من عوامّ الناس المدَّعين، ولم اقرأه في كتاب، وهو أنّ التكامل في السير والسلوك وبلوغ المقامات العظيمة يكون بمخالفة التكليف الصادر عن الولي الإمام عليه السلام.

ويستشهدون بهذه المقولة الشيطانيّة بشواهد تنمُّ بوضوح عن عدم فهمهم لأبسط مقدِّمات فهم اللّغة، فضلاً عن أصول الفهم وقواعده. ومن تلك الشواهد، أنّ الإمام الحسين عليه السلام طلب من أصحابه ليلة العاشر من محرّم أن يغادروا ساحة كربلاء بقوله:

(١) التويسركاني، محمّد، لآلئ الأخبار، طهران، ج١، ص١٢٤.

«إنّ هذا اللّيل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً، وليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً خيراً، وتفرَّقوا في سوادكم ومدائنكم»(١)

فالإمام الحسين عليه السلام حسب دعواهم كلَّف أصحابه بالمغادرة، لكنَّهم عصوه ورفضوا الذهاب، ولأنَّهم عصوا هذا التكليف للإمام من دافع حبِّهم له فإنّهم وصلوا إلى مرحلة الشهادة.

وليت شعري هل يعلم هؤلاء أنّ صيغة الأمر في لغة العرب استعملت في معانٍ كثيرة أنهاها بعض المحقّقين إلى خمسة وعشرين معنى، منها التهديد، كقوله تعالى:

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾.

ومنها التعجيز كقوله تعالى:

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾.

(١) المقرم، عبد الرزاق، مقتل الحسين عليه السلام، قُمّ، دار الثقافة، ١٤١١هـ، ص٢١٢-٢١٣.

ومنها الانذار، كقوله تعالى:

﴿تَمَتَّعُواْ...﴾.

ومنها الإباحة، كقوله تعالى:

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ﴾.

ومنها الاعتبار، كقوله تعالى:

﴿انظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾.

ومنها الإهانة، كقوله تعالى:

﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

إلى غيرها من المعاني التي تستخدم فيها صيغة الأمر[1].

فالعجيب كيف يُستدلّ بقول الإمام الحسين -روحي فداه- «فاتّخذوه جملاً» والذي أراد به أن يختبر أصحابه في تلك اللّيلة العظيمة أنّه يدلّ على التكليف والوجوب، وهم -والعياذ بالله- قد عصوا تكليف إمامهم!

(١) انظر: المظفّر، محمّد رضا، أصول الفقه، ط٣، قُمّ، إسماعيليان، ١٤٠٨هـ، ص٦٣.

إنّي لا أجد خلفيّة لما نقلته إلّا تحريكاً شيطانيّاً بعنوان مقدَّس هو حُبّ أهل البيت عليهم السلام والذين لا شكّ أنَّهم براء من أولئك المنحرفين.

الحالة الثانية

طرح بعض المنتسبين إلى مدارس السير والسلوك طريقاً لتركيز قلبه وتعلّقه بالله تعالى، وخلاصة هذه الطريق هي أن يركّز انتباهه إلى أحد المحسوسات، مثل حجر أو جسم آخر، فينظر إليه بالعين الظاهرة مدّة، ولا يطبق عينه مهما أمكن، وينتبه بجميع القوى الظاهريّة والباطنيّة إليه، ويستمرّ على هذه الحال مدة، والأفضل أربعون أو أكثر[١]. وتجرّأ بعضهم، في بيان هذا الاتّجاه بتمثيل آخر هو أن يركّز السالك نظره على شحمة أذن فاتنة جميلة، أو محيّا شيخ مرشد بنفس الحجّة السابقة التي هي

(١) انظر الرسالة المنسوبة إلى بحر العلوم بعنوان رسالة في السير والسلوك، شرح وتحقيق حسن مصطفوي، تعريب لجنة الهدى، ط١، بيروت، دار الروضة ١٤١٤هـ، ص١٣٣.

أنّ اللّبّ، حينما يحصر تعلّقه بشيء واحد، يستطيع أن يقطع علاقاته بالآخرين، ثمّ في مرحلة ثانية، يقطع هذا الارتباط الوحيد ليركِّز قلبه على اللّه تعالى ليصل إلى المبتغى المنشود.

وفي مقام بيان الحكم على هذا الاتّجاه، في ضوء الميزان المتقدّم، أترك الكلام لسيّد العرفاء والفقهاء الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ إذ يقول:

«ومن التصرّفات الخبيثة للشيطان، إضلال القلب وإزاغته عن الصّراط المستقيم وتوجيهه نحو فاتنة أو شيخ مرشد. ومن إبداع الشيطان الموسوس في صدور الناس، الفريد من نوعه، هو أنّه مع بيان عذب ومليح، وأعمال مغرية، قد يعلّقُ بعض المشايخ بشحمة أذن فاتنة جميلة ويبرّر هذه المعصية الكبيرة بل هذا الشّرك لدى العرفاء، بأنّ القلب، إذا كان متعلّقاً بشيء واحد، استطاع أن يقطع علاقاته بالآخرين بصورة أسرع،

فيركّز كلّ توجّهه أوّلاً على الفتاة الجميلة بحجّة أنّ القلب ينصرف عن غيرها وأنّه منتبه إلى شيء واحد ثمّ يقطع هذا الارتباط الوحيد ويركّز قلبه على الحقّ المتعالي. وقد يدفع الشيطان بإنسان أبله نحو إنسان أبله، نحو محيّا مرشد مكّار وحش، بل شيطان قاطع للطريق ويلتجئ في تبرير هذا الشّرك الجليّ إلى أنّ هذا المرشد هو الإنسان الكامل، وأنّه لا سبيل للإنسان في الوصول إلى مقام الغيب المطلق إلّا بوساطة الإنسان الكامل المتجسّد في المرآة الأحديّة للمرشد، ويلتحق كلّ منهما بعالم الجنّ والشياطين. ذاك -المرشد- بالتفكير في جمال معشوقه ومفاتنه إلى نهاية عمره، وهذا . الإنسان البسيط . بالانتباه الدائم إلى محيّا مرشده المنكوس حتّى آخر حياته. فلا تنسلخ العلقة الحيوانيّة عن المرشد، ولا يبلغ الإنسان الأبله الأعمى منشوده ومبتغاه».

الحالة	الحكم	السبب
تركيز السالك نظره على فتاة جميلة (...) مقدّمة لتركيز قلبه على الحقّ المتعالي	انحراف (شرك العرفاء)	خلاف الشريعة

الحالة الثالثة

اعتقد البعض أنّ السالك لا يصل طالما لم يسلم من آفات الجاه والرياء، لذا يبرَّر له أن يفعل المحرَّمات النافرة بشكل علنيّ ليسقط من أعين الناس، وبالتالي ينجو من الجاه والرياء فيصنع كما فعل ذلك السالك الذي رُوِي قصته الغزالي، فقد سرق ثياباً في الحمّام العامّ وهرب ليلحقه الناس، ويقولوا عنه «سارق الحمَّام»، وهكذا حصل، فاعتقد أنّه وصل إلى النتيجة المطلوبة، فسكنت نفسه.

ومن الواضح أنّ هذا الطريق محرَّم؛ إذ لم يفوِّض الله للإنسان أن يذلَّ نفسه، فضلاً عن حرمة السرقة الواضحة.

السبب	الحكم	الحالة
خلاف الشريعة	انحراف	فعل الحرام أمام الناس للسقوط من أعينهم وبذلك يسلم من الجاه والرّياء

الحالة الرابعة

حـاول بعضهم أن يتخلّى عـن حُـبّ الـمـال، فباع جميع ممتلكاته، لكنّه فكَّر أنّه إن فرَّقه بين الناس قد يحصل عنده الرّياء، لذا سلك طريقاً آخر وهو أنّه رمى ماله في البحر[١].

ومن الواضح أنّ هذا الطريق حرام؛ لأنّ رمي المال في البحر هو تبذير، وهو من المحرَّمات الكبائر.

السبب	الحكم	الحالة
خلاف الشريعة	انحراف	رمي المال في البحر للقضاء على حُبّ المال والابتلاء بالرّياء

(١) الحائري، كاظم، تزكية النفس، ص١٤٣.

الحالة الخامسة

سلك بعضهم في سيره وسلوكه اتجاهاً فيه تعذيب شديد للجسد ليجعله طيِّعاً على العبادة، وفي هذا الإطار، يُرْوِي عن بعض الشيوخ أنّه ألزم نفسه بالقيام على رأسه طوال اللّيل؛ لتسمح نفسه بالقيام عن طوع[١]. وحاله هذا كمن يحرق جسده حرقاً خطيراً ليتذكّر بذلك جهنّم.

ومن الواضح أنّ تعذيب الجسد الذي يصل إلى حدٍّ كبير وخطير على الإنسان أنّه من المحرّمات الشرعيّة.

الحالة	الحكم	السبب
تعذيب الجسد إلى حدِّ الخطورة	انحراف	خلاف الشريعة

الحالة السادسة

ما اشتهر عن بعض الصوفيّة وعن مجالسهم التي فيها الرقص والسماع ليحصلوا فيها على ما يُسمَّى بالحال أو

(١) انظر: المرجع السابق.

الوَجْد، حتّى نقل عن الشيخ أبي سعيد أبي الخير أنّه كان ذات يوم في ضيافة محمّد القائيني، وانشغل هو وجماعته بالسّماع، والوجد، والرقص، والصّياح، وإذا بصاحب البيت أبلغهم حضور وقت الصّلاة، فأجاب الشيخ: نحن في الصّلاة، فبقوا مستمرّين في رقصهم وسماعهم، فتركهم صاحب البيت وانصرف إلى الصّلاة(١).

ومن الواضح أنّ هذا خلاف الشريعة المطهّرة التي دعت إلى الصّلاة في أوّل وقتها معتبرة أنّها العمل الأوّل الذي يوصل إلى الفلاح.

الحالة	الحكم	السبب
ترك الصّلاة بحجّة أنّ الغاية تحصل في السماع والرقص الصوفيَّيْن	انحراف	خلاف الشريعة

الحالة السابعة

ما يفعله البعض من ارتكاب محرَّمات واضحة باعتبار

(١) المرجع السابق، ص ١٤٢.

أنّ حرمتها تسقط وترتفع بالنسبة للواصل إلى مرحلة معيّنة من السلوك، كخلع المرأة حجابها أمام رجل أجنبيّ بحجّة أنّهما وصلا إلى مرحلة عالية في سيرهما وسلوكهما، وعليه سقطت التكاليف الظاهريّة عنهما.

فهذا انحراف واضح وأنّها شيطنة متلبّسة بلُبوس دينيّ.

الحالة	الحكم	السبب
ارتكاب بعض المحرَّمات الظاهرة باعتبار سقوطها عمّن وصل إلى مرحلة عالية في السير	انحراف	خلاف الشريعة

الحالة الثامنة

يبرِّر البعض للسالك أن يترك الفريضة الإلهيّة المهمّة وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حال أدَّيا إلى غضب السالك وتكدّر فكره وانكسّار صفاء ذهنه، وهذا ما نلاحظه من خلال النصّ التالي، وهو موجَّه من أحد «السالكين»:

«حوِّل النجاسة إلى غيرك لا إلى نفسك، فلو رأيت، مثلاً، أنّ الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدّيان إلى حالة الغضب، وتكدّر الفكر، وانكسّار الذهن -وهذا أضرّ عليك ممّا يوجبه ارتكاب الجرم والحرام من الضّرر على ذاك الفاعل- فاتركه على حاله واحتفظ أنت بصفاء نفسك»[١].

ومن الواضح أنّ هذا خلاف الشريعة التي أمرت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ميزان موهوم: خوارق العادات

يظنّ بعض الناس أنّ حدوث ما يُظَنّ أنّه خرق للعادات من أعمال بعض **«السالكين»** هو دليل على أنّ سيرهم هو حقّ وأنّه يوصل إلى الحقيقة، لذا ترى البعض يستدلّ على صلاح الآخر وأنّه أهل ليكون المرشد والمربّي في السير والسلوك بما سمعه منه من قراءته لخواطر الآخرين وما يفكّرون به،

(١) المرجع السابق، ص١٤٢.

أو بأمر مغيَّب كحصول أمر في منطقة ما، في زمان ما، ثمّ يحصل ما أخبر به، أو يستدلّ على صلاحه وأهليته للتربية والرشاد بما يراه منه من عبور على النار ونحو ذلك، وكثير من الناس حينما يسمعون، بمثل ما مرَّ أو يرونه فإنّهم ينبهرون، ممّا يولِّد فيهم خضوعاً لذلك الإنسان، واستعداداً لإطاعته التامّة فيما أمر مهما كان أمره!!.

مكاشفات وخوارق الكفّار

وفي مقام الجواب عن مثل هذه الحالات نعرض بعض الكلمات المنسوبة إلى عرفاء معروفين، ففي الرسالة المنسوبة إلى السيّد بحر العلوم:

«ويجب الحذر، وعدم الانخداع بظهور خوارق العادات، وبيان دقائق النّكات، وإظهار الخفايا الآفاقيّة، والخفايا الأنفسيّة، وتحويل بعض حالاته بمتابعة حالات ذلك؛ لأنّ الإشراف على الخواطر، والاطّلاع على الدقائق، والعبور على الماء والنار، وقطع

الأرض والجوّ، والإخبار عن المستقبل، وأمثالها، تحصل في مرحلة المكاشفة الروحيّة، والطريق من هذه المرحلة إلى الهدف طريق بلا نهاية، والمنازل والمراحل كثيرة، وكثيرون قطعوا هذه المرحلة، وبعد ذلك انحرفوا عن الطريق إلى وادي اللّصوص والأبالسة، ومن هذا الطريق يحصل لكثير من الكفّار اقتدار على كثير من هذه الأمور»[1].

إذاً يصرِّح صاحب هذا النصّ بأنّ الحالات الخارقة تكون مشتركة بين المؤمن والكفر، ولا يدل ثبوتها على الكمال.

مكاشفات وخوارق المضلّين

وفي كلام آخر في هذه الرسالة يقول:

«ومن الحالات التي يحظى فيها أغلب الناس المتديّنين أن يحسب الاشتغال بالختومات

(١) بحر العلوم، محمّد مهدي، رسالة في السير والسلوك، تحقيق المصطفوي، ترجمة لجنة الهدى، ط١، بيروت، دار الروضة ١٤١٤هـ، ص١٢١.

والأوراد المختلفة سيراً معنويّاً، ومقامات روحانيّة، ويستهلك أوقاته الثمينة باسم الذكر والورد والختم في أهداف دنيويّة وأغراض نفسانيّة.

ويمكن الادّعاء بأنّ أغلب أمثال هؤلاء الأشخاص يستهلكون عمرهم العزيز في هذه البرامج، ويسيئون الاستفادة من هذه الأمور، ويقومون بأعمال على خلاف الحقّ، وتظاهرات نفسانيّة، وإضلال الآخرين، وإهانة الحقائق والمعارف الإلهيّة قولاً وعملاً، ينحرفون، ويضلّون تماماً عن صراط الحقّ والسير الإلهيّ الخالص.

فيجب أن يكون السالك منتبهاً جيداً، ولا ينخدع بهؤلاء الأفراد، وليعلم أنّ هؤلاء من قطّاع طريق الحقيقة والإخلاص، وإنْ أظهروا من أنفسهم خوارق وغرائب، وهذا النوع من الأفراد موجود في

جميع الأقوام والشعوب، حتى عند الأقوام الوثنيّة، الذين يصلون إلى مقام مكاشفات روحانية ونفوذ روحي بأوراد ورياضات صعبة، ولكنّهم محرومون تماماً من مقام القرب والعبوديّة والإخلاص، والمعارف الإلهيّة»[١].

مكاشفات وخوارق عبدة البقر

وقد أورد البعض أنّ أحدهم سأل السيّد هاشم الحدّاد ما يلي: لقد ثبت أنّ بعض مرتاضي الهند من عبدة البقر يخبرون بحسب حركات البقر وسكناته عن بعض المغيّبات. كوقوع الثورة في كذا مكان من أقصى نقاط الشرق أو الغرب، ثمّ تنكشف صحة الخبر، فما علاقة ذلك بحركات البقر؟

---

(١) بحر العلوم، محمّد مهدي، رسالة في السير والسلوك، تحقيق المصطفوي، ترجمة لجنة الهدى، ط١، بيروت، دار الروضة ١٤١٤هـ، ص١٢١.

فأجاب الحدّاد: أنّ ذلك راجع إلى الارتباط الوثيق الثابت فيما بين موجودات العالم، وبما أنّ هذا المرتاض وصل، عن طريق الرياضة، إلى مستوى كشف وحدة النظام الحاكم على العالم، أصبح باستطاعته الإخبار بوساطة أيّ حركة أو سكون، ولو كان بشكل لا ترى له أهميّة، عن جميع التغييرات والتبديلات والحركات والسكنات في العالم. وكما أنّ هذا المرتاض الهنديّ ارتبط بوساطة الرياضات النفسانيّة، بالروح الكليّة للبقر، فاستطاع أن يرتبط بذاك النظام الواحد عن طريق أرواح البقر، فأصبح يخبر عن الرموز الخفيّة بوساطة شبكة البقر. كذلك بإمكان أحد أن يصل إلى نفس المستوى بعبادته للطير أو الهرّ أو النجوم أو الشمس أو القُمّر، وبالرياضة النفسانيّة التي توصله إلى النفوس الكليّة لأحد هذه الأمور أو غيرها، فيستدلّ ـ عندئذٍ ـ عن طريق ذلك الشيء الذي... فيه على ما يحكمه ذاك النظام الوحدانيّ، ولكن بما أنّ الإنسان أشرف المخلوقات،

لا ينبغي له أن يفني نفسه في نفوس أنزل من نفسه أو فيما يساوي نفسه، فإنّ هذا الفناء مستلزم لسقوط الإنسان وانحطاطه عن درجة الإنسانيّة، ولهذا نهى الإسلام عن عبادة البقر والنجم والحجر والملائكة والجنَّة وعبادة إنسان آخر وما إلى ذلك[١].

وهذا الكلام الذي هو على عهدة من تكلّم به يدلّ على اعترافه بأنّ لا علاقة بتقوية جنبة الروح وصدور بعض الخوارق مع القرب من الله تعالى والسير الحقّ الصحيح.

كلّ ما هنالك أنّ ما يحصل منهم يكون «**نتيجة المشي على بعض قوانين الطبيعة، ويصل إليها كلّ إنسان يتلزم بسلوك ذاك الطريق الطبيعيّ من دون فرق بين أن يكون مسلماً أو ملحداً أو مشركاً**»[٢]، وهذا يختلف عن معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء.

---

(١) الحائري، كاظم، تزكية النفس، ط١، قُمّ، مؤسّسة الفقه، ١٤٢١هـ، ص١٣٧ ـ ١٣٨.
(٢) المرجع السابق، ص١٤٠.

الخيَّاط وخوارق العادات

وفي كتاب كيمياء المحبة الذي كتب فيه العلامة محمّدي الريشهري لمحات من حياة العارف الشيخ رجب عليّ الخيَّاط الطهرانيقُدِّسَ سِرُّهُ نقل عن الأخير قوله:

«لا توقنوا بالمكاشفات ولا تعتمدوا عليها إطلاقاً، وإنّما يجب أن تتخذوا من أقوال الأئمّة وأفعالهم قدوة لكم على الدوام»[١].

وفي الكتاب نفسه ينقل أحد أبناء الشيخ رجبقُدِّسَ سِرُّهُ:

«ذهبت ذات مرّة برفقة أبي إلى جبل «بي بي شهربانو» وفي الطريق التقينا شخصاً من أهل الرياضة الروحيّة، وكان يدّعي بعض الادّعاءات، فسأله أبي: ما حصيلة رياضتك؟ فانحنى ذلك الرجل والتقط حجراً من الأرض وحوّله إلى كمّثرى، وقال لأبي: «تفضل كُل»! فقال له أبي: حسناً فعلت هذا العمل لي، ولكن قل لي: ماذا عملت للّه؟ وماذا قدَّمت له؟ وعندما سمع المرتاض هذه الكلمات من أبي بكى!»[٢].

(١) الريشهري، محمّدي، كيمياء المحبة، ط٤، بيروت، دار الولاء، ١٤٣٠هـ، ص٣٩.
(٢) المرجع السابق، ص٤١ ـ ٤٢.

الفصل الثالث

قاعدة السير والسلوك

قاعدة الموازنة

في ضوء الشريعة الغرَّاء التي هي ميزان السير والسلوك - تتّضح قاعدة أساسيّة فيه، ألا وهي الموازنة بين أمرين اهتمّت الشريعة بهما معاً، ورفضت الاكتفاء بواحد منهما دون الآخر، وهما:

١ ـ الاهتمام بالمعنويّات الفرديّة.

٢ ـ الاهتمام بالحياة الاجتماعيّة.

فقد رفض الإسلام الاقتصار على جانب التنمية الروحيّة الفرديّة بالابتعاد عن المجتمع والعزلة عنه، فرسم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم خطَّاً عريضاً واضحاً في ذلك حينما قال: «**لا رهبانيّة في الإسلام**»[١].

---

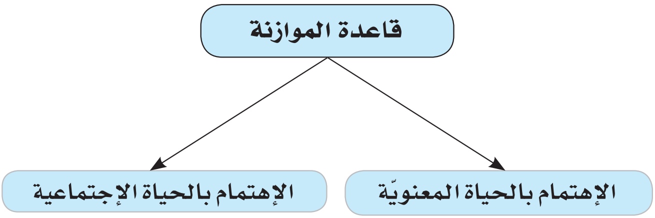
(١) الريشهري، محمّدي، ميزان الحكمة، بيروت، الدار الإسلاميّة، ١٩٨٥م، ج٤، ص١٨٦.

وحينما قال:

«من أصبح لا يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم».

كما رفض الإسلام الاقتصار على العمل الاجتماعيّ بعيداً عن الجانب الروحيّ والمعنويّ الفرديّ داعياً إلى تعزيز هذا الجانب باعتباره خير منطلق لعمل الإنسان.

والتفصيل في قاعدة الموازنة هذه يظهر فيما يلي:



الاهتمام بالحياة المعنويّة

في ظلِّ الحياة الماديّة التي يعيش الإنسان في أجوائها دعا الإسلام إلى تعزيز حالات المعنويّة وترقيق[١] حجاب المادّة لتحلّق الروح في رحاب اللّه تعالى، وذلك في مواطن عديدة منها:

صلاة اللّيل

حيث يقوم الإنسان في خلوته مع اللّه تعالى ليصلّي في جوف اللّيل متهجّداً متبتّلاً للّه تعالى. وقد ورد في فضلها الأحاديث الكثيرة منها:

ما ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام:

«ما من عمل حسن يعمله العبد إلّا وله ثواب في القرآن إلّا صلاة اللّيل فإنّ اللّه لم يبيِّن ثوابها لعظيم خطره عنده فقال: تتجافى جنوبهم

---

(١) هذا التعبير هو لآية اللّه السيّد كاظم الحائري.

عن المضاجع يدعون ربَّهم خوفاً وطمعاً وممّا رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون»[١].

وقد أشار القرآن الكريم إلى عظمة الاختلاء بالله تعالى في اللّيل وصلاته بقوله:

﴿أمن هو قانتٌ آناء اللّيل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه﴾[٢].

وقد فسَّر الإمام الباقر عليه السلام هذه الآية بصلاة اللّيل[٣].

وكذا فسَّر بصلاة اللّيل قوله تعالى:

﴿ومن اللّيل فسبِّحه وإدبار النجوم﴾[٤].

وكذلك قوله تعالى في أوصاف عباد الرحمن:

﴿والذين يبيتون لربِّهم سجّداً وقياماً﴾[٥].

(١) الحُرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة، تحقيق الشيرازي، ط٥، بيروت، دار احياء التراث العربي، ١٩٨٣، ج٥، ص٢٨٠ ـ ٢٨١.
(٢) سورة الزمر، الآية: ١.
(٣) عرفانيان، غلام رضا، صلاة اللّيل، ط٣، قُمّ، بصيرتي، ١٤١٠هـ، ص٢٥.
(٤) سورة الطور، الآية: ٤٩.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٦٤.

ولأهميّة الخلوة مع اللّه تعالى في صلاة اللّيل ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قوله:

«ركعتان يركعهما العبد في جوف اللّيل الأخير خير له من الدنيا وما فيها، ولولا أنّي أشقُّ على أمّتي لفرضتها عليها»[(١)].

من هنا كانت صلاة اللّيل الوصيّة النبويّة لأمير المؤمنين عليه السلام حين قال له:

«يا عليّ، أوصيك في نفسك بخصال احفظها عنيّ، ثمّ قال: اللهمَّ أعنه. إلى أن قال. وعليك بصلاة اللّيل، وعليك بصلاة اللّيل، وعليك بصلاة اللّيل...»[(٢)].

آثار صلاة اللّيل

وكثرت الروايات المخبرة عن آثار هذه النافلة العظيمة، ومنها ما يظهر من خلال ما يلي:

---

(١) عرفانيان، غلام رضا، صلاة اللّيل، ص٢٩.
(٢) المرجع السابق، ص٢٩ ـ ٣٠.

- سئل الإمام عليّ بن الحسين عَلَيهِالسَّلَامُ: ما بال المتهجّدين باللّيل من أحسن الناس وجهاً؟

قال عَلَيهِالسَّلَامُ:

«لأنَّهم خلَوْا باللّه فكساهم اللّه من نوره»[١].

- وعن الإمام الصّادق عَلَيهِالسَّلَامُ:

«إنّ البيوت التي يُصَلّى فيها باللّيل بتلاوة القرآن تُضيءُ لأهل السماء كما تُضيء نجوم السماء لأهل الأرض»[٢].

- وعن الإمام الصّادق عَلَيهِالسَّلَامُ:

«صلاة اللّيل تحسّن الوجه، وتُحسّن الخُلُق، وتُطيِّب الريح، وتدرّ الرزق، وتقضي الدَّيْن، وتُذهب الهمّ، وتجلو البصر»[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص٣١.
(٢) المرجع السابق، ص٣١ - ٣٢.
(٣) المرجع السابق، ص٣٢.

المناجاة

فقد دعا الإسلام أن يناجي العبد ربَّه كحالة الحديث عن السرّ الذي هو معنى النجوى[١]، وهذا ما يكون في حالة الاختلاء مع اللّه تعالى.

ولعلّ من أروع المناجاة ما كان يؤكّد عليها الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ وهي المناجاة الشعبانيّة التي ورد فيها:

«إلهي هَبْ لي كمال الانقطاع إليك، وأَنِرْ أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتّى تخرُقَ أبصارُ القلوب حُجُبَ النور فتصلَ إلى معدِنِ العظَمة، وتصيرَ أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك».

الاعتكاف

فقد دعا الإسلام إلى خلوة خاصّة أقلُّها ثلاثة أيّام في مكان خاصّ هو بيت اللّه[٢]، بشروط خاصّة منها الصيام

---

(١) الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق الحسيني، ط٢، بيروت، مؤسّسة الوفاء، ١٩٨٣، ج١، ص٤٠٧.

(٢) بشروط خاصّة مذكورة في الكتب الفقهيّة، راجع كتاب «أحكام الاعتكاف» إعداد ونشر جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة، بيروت.

وإطالة عدم الخروج من ذلك المكان، بأحكام خاصّة حيث لا التذاذ بالطيِّب ولا بيع ولا شراء، إنّها عبادة يبتعد فيها الإنسان عن ملذّات الدنيا، وعمّا اعتاده من شؤون حياته ليختلي مع اللّه تعالى هادفاً ترقيق حُجُب المادّة.

قال الشهيد السعيد السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره:

«يبدو أنّ الشريعة الإسلاميّة بعد أن ألغت فكرة الترهّب والاعتزال عن الحياة الدنيا، واعتبرتها فكرة سلبيّة خاطئة ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾، شرّعت الاعتكاف ليكون وسيلة موقوتة وعبادة محدودة تؤدَّى بين حين وآخر، لتحقيق نقلة إلى رحاب اللّه يعمّق فيها الإنسان صلته بربّه ويتزوّد بما تتيح له العبادة من زاد، ليرجع إلى حياته الاعتياديّة، وعمله اليوميّ، وقلبُه أشدّ ثباتاً، وإيمانه أقوى فاعليّة»[1].

(١) الصدر، محمّد باقر، الفتاوى الواضحة، ص٦٥٥.

الحياة المعنويّة في سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام

الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

من الجلِّي الواضح في حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم اهتمامه بالجانب المعنويّ في علاقته باللّه تعالى، فكان يختلي بنفسه مع اللّه تعالى متعباً نفسه بالعبادة حتّى أنزل اللّه تعالى:

﴿طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى﴾[١].

و رُوي أنّه كان عند إحدى زوجاته فقالت: يا رسول اللّه، لمَ تتعب نفسك؟! وقد غفر اللّه لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخَّر؟ فأجابها:

«ألا أكون عبداً شكوراً!»[٢].

(١) سورة طه، الآية: ١.
(٢) القُمّي، عباس، كحل البصر، قُمّ، انتشارات الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ١٤٠٤هـ، ص٧٨.

أمير المؤمنين عليه السلام

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام :

«ما تركت صلاة اللّيل منذ سمعتُ قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم :

(صلاة اللّيل نور)».

فقال ابن الكوّاء: ولا ليلة الهرير؟

قال عليه السلام :

«ولا ليلة الهرير»[1].

و رُوي عن عروة بن الزبير أنّه قال: كنّا جلوساً في مجلسٍ في مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فتذاكرنا أعمال أهل بدر وبيعة الرّضوان، فقال أبو الدرداء: يا قوم، ألا أخبركم بأقلّ القوم مالاً، وأكثرهم ورعاً، وأشدّهم اجتهاداً في العبادة؟

قالوا: من؟

قال: أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

(١) القُمّي، أصغر ناظم، الفصول المائة، قُمّ، انتشارات أهل البيت عليهم السلام ، ١٤١١هـ، ج٤، ص١١٨.

قال: فواللّه إن كان في جماعة أهل المجلس إلّا معرض عنه بوجهه، ثمّ انتدب له (أي أجابه) رجل من الأنصار فقال له: يا عويمر، لقد تكلّمت بكلمة ما وافقك عليها أحد منذ أتيت بها.

فقال أبو الدّرداء: يا قوم، إنّي قائل ما رأيتُ، وليقل كلّ قوم منكم ما رأوا، شهدت عليّ بن أبي طالب عليه السلام بشويحطات[١] النّجار، وقد اعتزل عن مواليه واختفى ممّن يليه، واستتر بمغيلات النخل فافتقدته وبَعُدَ عليَّ مكانه، فقلت: لحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين ونغمة شجيّ، وهو يقول:

«إلهي كم من موبقةٍ حلمتَ عن مقابلتها بنقُمّتك[٢]، وكم من جريرةٍ تكرّمتَ عن كشفها بكرمك، إلهي إن طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي، فما أنا مؤمّل غير غفرانك، ولا أنا بِراجٍ غيرَ رضوانك».

(١) شويحطات: نوع من الأشجار.
(٢) وفي الأمالي: كم من موبقة حلمت عني فقابلتها بنعمتك.

فشغلني الصوت واقتفيت الأثر، فإذا هو عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ بعينه، فاستترت له، وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف اللّيل الغابر[١].

ثمّ فرغ إلى الدُّعاء والبُكاء، والبثّ والشكوى، فكان ممّا به الله ناجاه أن قال:

«إلهي أُفكِّر في عفوك فتهون عليَّ خطيئتي، ثمّ أذكر العظيم من أخذك فتعظم عليَّ بليّتي».

ثمّ قال:

«آه، إن أنا قرأت في الصحف سيّئة أنا ناسيها، وأنت محصيها فتقول: خذوه، فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته، يرحمه الملأ إذا أُذّن فيه بالنداء».

ثمّ قال:

«آه، من نار تُنضج الأكباد والكُلَى[٢] آه من نار نزاعّة

---

(١) الغابر: الماضي وضد الباقي.

(٢) الكلى: جمع الكلية.

للشّوى، آه من غمرة من ملهبات[١] لظى».

قال: ثمّ أنعم[٢] في البكاء، فلم أسمع له حسّاً ولا حركة، فقلت: غلب عليه النوم لطول السّهر، أُوقظه لصلاة الفجر.

قال أبو الـدّرداء: فأتيتهُ فـإذا هو كالخشبة الملقاة، فحرّكته فلم يتحرّك وزويته فلم ينزو، فقلت:

﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾.

مات والله عليّ بن أبي طالب.

قال: فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم.

فقالت فاطمة عليها السلام:

«يا أبا الدّرداء، ما كان من شأنه وقصّته؟».

فأخبرتها الخبر.

فقالت عليها السلام:

«هي ـ والله، يا أبا الدّرداء ـ الغشية التي تأخذه من خشية الله».

---

(١) في الأمالي: الهبات.
(٢) أنعم: زاد وبالغ، وفي الأمالي انغمر.

ثمّ أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق، ونظر إليّ وأنا أبكي، فقال عليه السلام:

«مما بكاؤك، يا أبا الدّرداء؟».

فقلت: ممّا أراه تنزله بنفسك.

فقال عليه السلام:

«يا أبا الدّرداء، فكيف ولو رأيتني ودُعِيَ بي إلى الحساب، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوَشَتْني ملائكة غِلاظ وزبانية فِظاظ، فوقفتُ بين يدي الملك الجبّار، قد أسلمني الأحبّاء ورحمني أهل الدنيا، لكنت أشدّ رحمة لي بين يدي من لا تَخْفى عليه خافية».

فقال أبو الدّرداء: فواللّه ما رأيتُ ذلك لأحد من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم[1].

(١) القُمّي، أصغر ناظم، الفصول المائة، قُمّ، انتشارات أهل البيت عليهم السلام، ١٤١١هـ، ج٤، ص١٢١ ـ ١٢٢.

وعن عبادة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول ابن أبي الحديد:

وأمّا العبادة فكان عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أعبد النّاس وأكثرهم صلاةً وصوماً، ومنه تعلّم النّاس صلاة اللّيل، وملازمة الأوراد، وقيام النافلة، وما ظنّك برجل يبلغ من محافظته على ورده أن يُبسطَ له نَطْعٌ بين الصّفّين ليلة الهرير، فيصلّي عليه وِرْدَه والسّهام تقع بين يديه، وتمرّ على صِماخَيْه يميناً وشمالاً، فلا يرتاع لذلك، ولا يقوم حتّى يفرغ من وظيفته! وما ظنّك برجلٍ كانت جبهته كَثَفِنَة[1] البعير لطول سجوده.

وأنت إذا تأمّلت دعواته ومناجاته، ووقفت على ما فيها من تعظيم اللّه سبحانه، وإجلاله، وما يتضمّنه من الخضوع والخشوع لعزّته، والاستخذاء[2] له، عَرَفْتَ ما ينطوي عليه من الإخلاص، وفهمتَ من أيّ قلبٍ خرجَتْ، وعلى أيّ لسان جَرَت.

(١) الثفنة بكسر بعد فتح: ما يمسّ الأرض من البعير بعد البروك ويكون فيه غلظ من ملاطمة الأرض، وكذلك كان في جبين أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من كثرة السجود.

(٢) الطاعة والإنقياد.

وقيل لعليّ بن الحسين عليه السلام - وكان الغايَةَ في العبادة -:
أين عبادتك من عبادة جدّك؟

قال عليه السلام:

«عبادتي عند عبادة جدّي، كعبادة جدي عند عبادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

فاطمة الزهراء عليها السلام

في أسماء سيدة نساء العالمين عليها السلام دلالة على رقيِّها المعنويّ، فمن أسمائها - كما في رواية الإمام الصّادق عليه السلام[2] «الزّكيّة»؛ لأنها زكَّت نفسها، وعنها ورد عن ابنها الإمام الحسن عليه السلام، رأيت أمي فاطمة قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة ساجدة حتّى اتضح عمود الصبح[3]...

(١) المرجع السابق، ص١١٩.
(٢) انظر: المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، تحقيق محمود درياب، ط١، بيروت، دار التعارف، ٢٠٠١م، ج١٨، ص١٣.
(٣) المرجع السابق، ص٦٣.

وعنها قال الحسن البصري: ما كان في الأمّة أعبد من فاطمة، كانت تقوم حتّى تورم قدماها[(١)].

الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ

وكما سُمِّيَتْ أمُّه الزكيّة لتزكية نفسها، سُمِّيَ الإمام الحسن بالزكيّ لذلك، وعن الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«حدثني أبي عن أبيه أنّ الحسن بن عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أعبد الناس في زمانه، وأزهدهم وأفضلهم، وكان إذا حجَّ حجَّ ماشياً وربّما مشى حافياً، وكان إذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر القبر بكى، وإذا ذكر البعث والنشور بكى، وإذا ذكر الممرَّ على الصّراط بكى، وإذا ذكر العرْضَ على الله تعالى ذِكْرُه شهَقَ شهقة يُغشَى عليه منها، وكان إذا قام في صلاته ترتعد فرائصه بين يدي ربِّه عزَّ وجلَّ، وكان إذا ذكر الجنّة والنار اضطرب اضطراب السليم وسأل الله الجنّة وتعوَّذ به من النار»[(٢)].

---

(١) المرجع السابق، ص٦٣.
(٢) المرجع السابق، ص٢٣٧.

وجاء في روضة الواعظين أنّ الحسن بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ كان إذا توضّأ ارتعدت مفاصله، واصفرّ لونه، فقيل له في ذلك فقال:

«حقّ على كلِّ من وقف بين يدي ربّ العرش أن يصفرَّ لونه، وترتعد مفاصله»[1].

الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ

وفي اهتمامه بالمعنويّات ورد أنّه قيل للإمام السَّجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما أقلَّ وُلْدِ أبيك!

فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«العجَبُ كيف وُلِدَتْ له! لقد كان يصلّي في اليوم واللّيلة ألف ركعة، فمتى كان يتفرَّغ للنساء؟»[2].

وقد اشتهرت بين الرّواة مواقفه في عرفات أيّام موسم الحجّ، ودعاؤه المعروف بدعاء عرفة الذي يعرج بروح

(١) المرجع السابق، ص٢٤٣.
(٢) الحسني، هاشم، سيرة الأئمّة الاثني عشر، ط١،قُمّ، الشريف الرضي، ١٤٠٩هـ، ج٢، ص٣٣.

المؤمن إلى قِمم العرفان، وممّا جاء في هذا الدعاء:

«إلهي، لو حاولت واجتهدت مدى الأعصار والأحقاب لو عمرتها أن أؤدّي شكر واحدة من نِعَمِكَ ما استطعتُ ذلك إلّا بمنِّك الموجب عليّ شكراً جديداً، اللَّهم اجعلني أخشاك كأنّي أراك، واجعل غناي في نفسي واليقين في قلبي، والاخلاص في عملي، والنور في بصري، والبصيرة في ديني... إلهي كيف يُستَدلُّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتّى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بَعُدْتَ حتّى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقةُ عبد لم يجعل لك من حبِّه نصيباً...»[١].

(١) المرجع السابق، ص٣٤ ـ ٣٥.

وتظهر قمّة عرفان الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في كربلاء حينما اشتدّ به الحال فرفع صوته إلى السماء وقال:

«اللّهمَّ متعال المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال، غنيّ عن الخلايق، عريض الكبرياء، قادر على ما تشاء، قريب الرّحمة، صادق الوعد، سابغ النعمة، حسن البلاء، قريب إذا دُعيت، محيط بما خلقت، قابل التوبة لمن تاب إليك، قادر على ما أردت، تدرك ما طلبت، شَكور إذا شُكرتَ، ذكور إذا ذُكرت، أدعوك محتاجاً وأرغب إليك فقيراً! وأفزع إليك خائفاً، وأبكي مكروباً، وأستعين بك ضعيفاً، وأتوكّل عليك كافياً، اللّهمّ احكم بيننا وبين قومنا، فإنهم غرّونا وخذلونا وغدروا بنا وقتلونا، ونحن عترة نبيّك ووُلْد حبيبك محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الذي اصطفيته بالرسالة وائتمنته على الوحي، فاجعل لنا من أمرنا فرَجاً ومخرجاً، يا أرحم الراحمين»[1].

(١) المقرَّم، عبد الرزاق، مقتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ط٢، قُمّ، دار الثقافة، ص٢٨٢.

نكتفي بما مرَّ من بيان جانب من اهتمام النبيّ وأهل بيته عليهم السلام بالأمور المعنويّة تاركين تفصيل ذلك للكتب المختصّة لا سيَّما فيما يتعلق بالحالات المعنويّة لباقي أئمّة أهل البيت عليهم السلام من أبناء الإمام الحسين عليه السلام.

إفراط في المعنويّات:

انتهج البعض منهجاً خاصاً في تزكية النفس والسير والسلوك يقتصر على الاختلاء مع اللّه تعالى والابتعاد عن المجتمع وقضاياه، لذا فإنّ هؤلاء يرون في العزلة السبيل لتكامل الإنسان ووصوله إلى هدفه.

وقد تأثّر هؤلاء في منهجهم بجملة من الأمور نشير منها إلى أمرين:

الأوّل: ما مرَّ معنا من إيلاء الإسلام وسيرة النبيّ وأهل بيته عليهم السلام الجانب المعنويّ الأهميّة الكبرى ـ كما اتضح سابقاً.

الثاني: نظرة هؤلاء إلى الدنيا نظرة سلبيّة تقترب في

سلبيّتها من الاطلاق، مستشهدين، لهذه النظرة، بنصوص دينيّة وردت في القرآن والأحاديث الشريفة.

الدنيا في القرآن والأحاديث الشريفة (نظرة السّلب)

ففي القرآن الكريم عدّة آيات كريمة تتحدّث عن الدنيا في إطار يتّجه نحو جانب سلبيّ وضَعَه أولئك نُصْبَ أعينهم كقوله تعالى:

١ ـ ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[١].

٢ ـ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾[٢].

٣ ـ ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢٤.

أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[١].

وفي الأحاديث الشريفة الكثير ممّا يضع الدنيا في تلك الخانة السلبيّة نعرض منها:

- أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وقف على مزبلة فقال:

«هَلُمّوا إلى الدنيا»!

وأخذ خرقاً قد بليت على تلك المزبلة وعظاماً قد نَخِرَتْ.

فقال عليه السلام:

«هذه الدنيا»[٢].

- عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«الدنيا مصرعُ العقول».

«الدنيا معدِنُ الشّرّ ومحَلُّ الغرور».

«الدنيا مزرعة الشرّ».

«الدنيا سوقُ الخُسران»[٣].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٢) الريشهري، محمّدي، ميزان الحكمة، ج٣، ص٣٢٤.

(٣) الريشهري، محمّدي، ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٩٣ ـ ٢٩٤.

- عن الإمام الكاظم عليه السلام :

«مَثَلُ الدنيا مَثَلُ الحيَّة، مسُّها ليِّن، وفي جوفها السمّ القاتل، يحذَرُها الرجالُ ذوو العقول، ويهوي إليها الصبيان بأيديهم»[1].

هذا إضافةً إلى الروايات التي تحدَّثت عن خطورة حبّ الدنيا كالحديث المشهور عن الإمام الصّادق عليه السلام :

«رأسُ كلِّ خطيئة حبُّ الدنيا»[2].

وكالحديث القدسي:

«لو صلَّى العبد صلاة أهل السماء والأرض، وصام صوم أهل السماء والأرض، ويطوي من الطعام مثل الملائكة، ولبس لباس العاري، ثمّ أرى في قلبه من حبِّ الدنيا أو سُمْعتها أو رئاستها أو حُليِّها أو زينتها، لا يجاورني في داري ولأنزعنَّ من قلبه محبّتي»[3].

(١) المرجع السابق، ص٣٣١.
(٢) المرجع السابق، ص٢٩٤.
(٣) المرجع السابق، ص٢٩٥.

ضيق النظرة في الموقف من الدنيا

وقد تأثَّر أولئك بتلك الآيات والروايات مُسَوِّغين بها عزوفهم عن العمل الاجتماعيّ، واقتصارَ حياتهم على العزلة الخاصّة مع اللّه تعالى. والملاحَظُ، في نظرتهم هذه التي أثَّرت في مسلكهم، أنّها اقتصرت على الأخذ بجانب من النصوص الدينيّة الواردة، تاركة جانباً آخر لا بدّ من ملاحظته لفهم موقف الإسلام من الدنيا.

ففهم موقف الإسلام من الدنيا أو غيرها من الأمور، لا يتمّ من خلال قراءة تجزيئيّة لبعض النصوص الواردة حول ذلك الأمر، بل لا بدّ من قراءة موضوعيّة تُطِلُّ على مجموع النصوص الواردة والتي ينبثق منها قواعدُ وأساسيَّاتٌ في فهم كثير من المطالب المبتغاة؛ فالقارئ للآيات والروايات السابقة، حينما يقتصر في قراءته عليها، فإنّ الموقف من الدنيا لن يخرج من دائرة السلب، ولكن حينما ننظر إلى الآيات والروايات الشريفة الأخرى فإنّ الموقف سيختلف.

ولتوضيح الأمر، سأعرض جانباً من آيات القرآن والروايات حول الدنيا، وردت بنمط آخر لا بدّ من ضمّها إلى النمط الأوّل لتحديد الموقف النهائيّ.

الدنيا في القرآن والأحاديث (نظرة الإيجاب)

* قال تعالى:

- ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[١].
- ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٢].
- ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

علق عليها الإمام الباقر عليه السلام فقال: «**الدنيا**»[٣].

(١) سورة القصص، الآية: ٧٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٣) الريشهري، محمّدي، ج٣، ص ٢٨٥.

* وعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا تسبّوا الدنيا فنِعْمَتْ مطيّةُ المؤمن، فعليها يَبْلُغُ الخير، وبها ينجو من الشرّ، إنّه إذا قال العبد: لعن الله الدنيا، قالت الدنيا: لعنَ الله أعصانا للرّبّ»[1].

* وورد أنّ أحدهم ذمَّ الدنيا فقال له أمير المؤمنين عليه السلام:

«أيُّها الذَّامُّ للدنيا المغترُّ بغرورها المنخدع بأباطيلها، أتغترُّ بالدنيا ثمّ تذمُّها! أنت المتجرِّم عليها، أم هي المتجرِّمةُ عليك؟ متى استهوتك؟ أم متى غرَّتك؟!

إنّ الدنيا دارُ صدقٍ لمن صدَّقها، ودارُ عافيةٍ لمن فهِمَ عنها، ودارُ غنىً لمن تزوَّد منها، ودارُ موعظةٍ لمن اتّعظ بها، مسجدُ أحبّاءِ الله، ومصلّى ملائكة الله، ومهبطُ وحي

(١) المرجع السابق، ص ٢٩١.

اللّه، ومتجرُ أولياء اللّه، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنّة»[١].

- وعن الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«اجعلوا لأنفسكم حظّاً من الدنيا بإعطائها ما تشتهي من الحلال، وما لا يثلُمُ المروَّة وما لا سَرَفَ فيه، واستعينوا بذلك على أمور الدين فإنّه رُوِي: ليس منّا من ترك دنياه لدينه أو ترك دينه لدنياه»[٢].

وفي حبِّ الدنيا ورد:

* عن الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

«ليس من حُبِّ الدنيا طَلَبُ ما يُصلحُك»[٣].

* وعن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«الناسُ أبناء الدنيا، ولا يُلام الرجل على حبِّ أُمّه»[٤].

---

(١) بيضون، لبيب، تصنيف نهج البلاغة، ط٢، طهران، مركز النشر في مكتب الإعلام الإسلاميّ، ١٤٠٨هـ، ص ٨٨٦ - ٨٨٧.
(٢) الريشهري، محمّدي، ميزان الحكمة، ج٣، ص ٣٣٠.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٩٦.
(٤) بيضون، لبيب، تصنيف نهج البلاغة، ص ٩٠٣.

* وعن ابن أبي يعفور: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «إنّا لَنُحِبُّ الدنيا».

فقال لي:

«تصنع بها ماذا»؟.

قلت: «أتزوّج منها، وأَحُجُّ وأُنفقُ على عيالي، وأُنيلُ إخواني، وأتصدَّق».

قال لي:

«ليس هذا من الدنيا، هذا من الآخرة»[١].

النظرة الموضوعيّة إلى الدنيا

إنّ المتأمل في مجموع النصوص الواردة حول الدنيا يخلُص إلى نتيجة واضحة هي أنّ الإشكالية ليست في الدنيا بما هي دنيا، بل هي في علاقة الإنسان بالدنيا.

(١) الريشهري، محمّدي، ميزن الحكمة، ج٣، ص ٣٣٠.

وعلى حدّ التعبير المتقدّم لأمير المؤمنين عليه السلام:

«أنت المتجرّم عليها؟ أم هي المتجرِّمة عليك؟».

وعليه فالنصوص التي تتحدّث عن عدم استقرار الدنيا وهزالتها كانت في صدد تنبيه الإنسان إلى أنّها غير صالحة لاتخاذها غاية نهائيّة للإنسان، لذا نهته عن أن يُحبَّها كغاية، بل إنّ حبّها حينئذٍ يكون رأس كلّ خطيئة، أمّا تعامل الإنسان مع الدنيا على أساس أنّها وسيلة للآخرة، فهذه العَلاقة غير مذمومة، بل هي ممدوحة وحبُّها مُسوَّغ. ولعلَّ من أروع وأجمل ما عبَّر عن هذا التفصيل بين دنيا الغاية ودنيا الوسيلة هو ما ورد عن سيّد الفصحاء وأمير البلغاء عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

«من أبصرَ بها بصَّرته، ومن أبصرَ إليها أعمته».

فنظرة **«باء»** الوسيلة تؤدّي إلى البصيرة، ونظرة **«إلى»** الغاية تؤدّي إلى العمى[1]!

(١) انظر: «رحاب نهج البلاغة» للشهيد المطهّري، ط ١، بيروت، الدار الإسلاميّة، ١٤١٣هـ، ص ١٦٩ – ٢٠١.

ومع أنّ البحث طويل، إلّا أنّنا نكتفي بما مرّ، فهو يصلح كمقدّمة للدخول في بيان اهتمام الإسلام بالحياة الاجتماعيّة ليوازن المؤمن بينها وبين المعنويّات الفرديّة.

الاهتمام بالحياة الاجتماعيّة

أ- القرآن والحياة الاجتماعيّة

مع حثّه على إيلاء الحالات المعنويّة الاهتمام الكبير، بيَّن القرآن الكريم أنّ اللّه تعالى قد استخلَف الإنسانَ في الأرض:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١].

واستخلافه فيها يتحقّق من خلال إحيائها واستثمارها على قاعدة محوريّة الإنسان فيها، كما بيَّن اللّه تعالى أنّ الهدف من وجود الإنسان،الذي يتحقّق من خلال السير والسلوك في سبيل اللّه، يتجلى من خلال العمل الاجتماعيّ

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

الصالح. فالآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن السير والسلوك في سبيل اللّه، ذَكَرت عناوين كثيرة لهذا السلوك، تنصبُّ في خانة خدمة الناس. ومن هذه العناوين:

١ - إنفاق المال، قال تعالى:

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ...﴾[١].

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ...﴾[٢].

٢ - الجهاد والقتال، قال تعالى:

﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾[٣].

وقال تعالى:

﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾[٤].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٤.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٩.

٣ - الهجرة، قال تعالى:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾(١).

٤ ـ الشهادة:

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا﴾(٢).

واللّافت في القرآن الكريم مدحه الكبير للعاملين في خدمة الناس ونفعهم، كما ورد في سورة الإنسان في قصّة إطعام أهل البيت عليهم السلام للمسكين واليتيم والأسير.

«**فقد ورد أنَّ الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام مرضا - وهما صغيران - فنذر أبوهما عليّ وأُمُّهما فاطمة عليهما السلام إن عافاهما الله أن يصوما ثلاثة أيام، وكذا فعل الحسن والحسين عليهما السلام مع صغر سنّهما، واقتدت بهم خادمتهم فضّة.**

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

«وحينما برئا، أصبحوا صياماً وليس عندهم طعام، فانطلق عليّ عليه السلام إلى يهوديّ وأخذ منه جزّة من صوف على أن تغزلها السيّدة الزهراء عليها السلام مقابل ثلاثة أصوع من الشعير، فغزلت عليها السلام ثلث الصوف ثمّ طحنت صاعاً من الشعير وعجنته، وخبزت منه خمسة أقراص، فلمّا جلسوا خمستهم ليتناولوا الطعام إذا مسكين على الباب يقول: السّلام عليكم يا أهل بيت محمّد، أنا مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني ممّا تأكلون، أطعمكم الله من موائد الجنّة، فوضع علي عليه السلام اللّقُمّة من يده وأعطى قرصه للمسكين، وكذا فعلت فاطمة عليها السلام وكذا فعل الحسنان عليهما السلام، فباتوا جياعاً وأصبحوا صياماً، ولم يذوقوا إلّا الماء.

«وفي اليوم الثاني غزلت السيّدة الزهراء عليها السلام ثلث الصوف الآخر وطحنت صاعاً من الشعير وعجنته وخبزته خمسة أقراص، فلمّا جلسوا خمستهم ليتناولوا

الطعام إذا يتيم على الباب يقول: السّلام عليكم يا أهل بيت محمّد، أنا يتيم من يتامى المسلمين، أطعموني ممّا تأكلون، أطعمكم الله من موائد الجنّة، فدفع جميعهم الطعام إلى هذا اليتيم وباتوا جياعاً وقاموا صِياماً.

«وتكرَّر المشهد في اليوم الثالث حينما وقف على الباب أسيرٌ من أسرى المشركين يقول: السّلام عليكم يا أهل بيت محمّد، تأسروننا وتشدّوننا ولا تطعموننا؟ ففعلوا كما فعلوا بالأمس وقبله، وباتوا جياعاً. وأستيقظوا ليأتي إليهم نبيُّ الإسلام بالبشرى الكبرى وهو قوله تعالى:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ...﴾[(١)] [(٢)].

(١) سورة الإنسان، الآيات: ٧-١٢.

(٢) انظر: بركات، أكرم، محاضرات عاشورائية، ص ٣٧ - ٣٨.

ب - الأحاديث الشريفة والحياة الاجتماعيّة

بيَّن أهل البيت عليهم السلام سموَّ العمل الاجتماعيّ في خدمة الناس من خلال الحديث القدسيّ: قال اللّه (عزَّ وجلَّ):

«الخَلْقُ عيالي فأحبُّهم إليَّ ألطفُهم بهم، وأسعاهم في حوائجهم»[١].

كما بيَّنوا عليهم السلام الثواب العظيم والكرامة الإلهيّة التي جعلها اللّه تعالى للسائر في حاجة الناس والقاضي لها، كما يظهر في الأحاديث التالية:

١ - عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«من سعى في حاجة أخيه المؤمن فكأنّما عبَدَ اللّه تسعة آلاف سنة، صائماً نهاره، قائماً ليله»[٢].

٢ - عن الإمام الباقر عليه السلام:

«من سعى في حاجة أخيه المسلم - طَلَبَ وجه اللّه - كتب اللّه له ألفَ ألفَ حسنة»[٣].

---

(١) الريشهري، محمّدي، ميزان الحكمة، بيروت، الدار الإسلاميّة، ١٩٨٥م، ج٢، ص٥٣٧.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق، ص ٥٣٧.

٣ - عن الإمام الصّادق عليه السلام:

«إنّ العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن فيوكّل اللّه عزَّ وجلَّ به مَلَكَيْن: واحداً عن يمينه، وآخر عن شماله، يستغفرون له ربّه، ويدعون بقضاء حاجته»[١].

٤ - عن الإمام الكاظم عليه السلام:

«إنّ للّه عباداً في الأرض يسعون في حوائج الناس، هم الآمنون يوم القيامة»[٢].

٥ - عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«من قضى لأخيه المؤمن حاجة كان كمن عبد اللّه دهراً»[٣].

٦ - وعنه صلوات اللّه عليه وآله:

«من قضى لمؤمن حاجة قضى اللّه له حوائج كثيرة أدناهُنَّ الجنّة»[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٣٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٥٣٦.
(٣) المرجع السابق، ص ٥٣٩.
(٤) المرجع السابق.

الحياة الاجتماعيّة في سيرة النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام

الرسول الأكرم ﷺ

كما كان الجانب المعنويّ جليّاً في شخصيّة النبيّ ﷺ كان اهتمامه بالحياة الاجتماعيّة جليها أيضاً.

فكان أصحابه يرون اهتمامه بعياله حتّى قال أحدهم: ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول اللّه. وورد في سيرته الشريفة أنّه كان يتجمَّل لزوجاته[١].

كما ورد أنّه كان يحلب عنز أهله[٢].

وكان صلوات اللّه عليه، يولي اهتماماً بالأطفال، فكان يمسح على رؤوسهم[٣] ويُجلسهم في حِجْره ويُقبّلهم[٤]. وقد رأى المسلمون خاتم الأنبياء ﷺ يحمل الحسن والحسين عليهما السلام على ظهره يحبو بهما ويقول:

(١) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ط ١، بيروت، دار الفارق، ج٧، ص ٤٧٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٦٥.
(٣) بركات، أكرم، كيف تجعل ولدك صالحاً، ط ٢، بيروت، دار الولاء، ٢٠٠٤، ص ٥٣.
(٤) بركات، أكرم، محاضرات عاشورائية، ط ١، بيروت، دار الولاء، ٢٠٠٠، ص ٣٦.

«نِعْمَ الجمل جملُكما! ونِعْمَ العِدْلانِ أنتما»(١).

وورد في عَلاقته بالمؤمنين أنّه كان إذا فقد الرجلَ من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإنّ كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده(٢) وكان ﷺ يتجمَّل لأصحابه ويقول:

«إنّ الله تعالى يحبّ من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهيّأ لهم ويتجمَّل»(٣).

وكان في عَلاقته بجيرانه يمثّل قُمّة الرحمة، حتّى مع جاره اليهوديّ الذي كان يؤذيه يوميّاً بوضع النفايات قرب باب منزله، ولم يكن النبيّ ﷺ يردّ عليه بأية كلمة أو أيّ فعل، بل حينما لم يجد النُّفايات ذات يوم، سأل عن ذلك الجار، فقيل له إنّه مريض. فذهب لعيادته، وقد أدَّى ذلك إلى إسلام ذلك اليهوديّ.

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٥.
(٢) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج٧، ص ٤٦١.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٨٣.

وكان ﷺ بالغ الاهتمام بهداية الناس إلى الحقّ حتّى وصل حاله في ذلك، أنّ الله تعالى أنزل عليه قوله:

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[١].

وكان في الحروب أوّلَ المسلمين إقداماً، وأكثرَهم شجاعة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام:

«لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبيّ ﷺ وهو أقربنا إلى العدوّ، وكان من أشدّ الناس يومئذٍ بأساً»[٢].

وعنه عليه السلام:

«كنّا إذا احمَّر البأسُ ولقي القومُ القومَ اتّقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه»[٣].

(١) سورة غافر، الآية: ٨.
(٢) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج٧، ص ٤٦٠.
(٣) المرجع السابق.

الإمام علي عليه السلام

وكما تجلَّى اهتمام أمير المؤمنين بالعَلاقة المعنويّة باللّٰه تعالى، كان اهتمامه بالحياة الاجتماعيّة، فكان خير زوج مع أهله.

فقد ورد أنّه عليه السلام كان في بيت السيّدة الزهراء عليها السلام يحتطب ويستقي ويكنس[١]، وكان عليه السلام رغم فقره يوزِّع رزقه على المساكين[٢].

وكان عليه السلام يسعى جاهداً للدفاع عن المظلومين، وإغاثة الملهوفين، سواء في الدفاع عن المجتمع الإسلاميّ، ومواقفه في ذلك مشهودة، أو في النواحي العديدة في الحياة الاجتماعيّة.ويشهد لذلك ما ذكره سعيد بن قيس الهمدانيّ من أنّه رآه يوماً في فِناء حائط، فقال: يا أمير المؤمنين بهذه الساعة؟

---

(١) المرجع السابق، ج١٨، ص ١١١.
(٢) المرجع السابق، ص ١٠٥.

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«**ما خرجْتُ إلّا لأُعينَ مظلوماً أو أُغيثَ ملهوفاً**».

فبينما هو كذلك إذ أتته امرأة قد خُلِعَ قلبُها لا تدري أين تأخذ من الدنيا، حتّى وقفت عليه، فقالت: يا أمير المؤمنين، ظلمني زوجي وتعدّى عليَّ وحلف ليضربني، فاذهب معي إليه.

فطأطأ رأسه ثمّ رفعه وهو يقول: حتّى يؤخذَ للمظلوم حقُّه غير مُتَعْتَع، وأين منزلك؟

قالت: في موضع كذا وكذا، فانطلق معها حتّى انتهت إلى منزلها، وهناك أصلح أمرها مع زوجها، وخرج منه وهو يقول:

﴿لَا خَيرَ فِي كَثِيْرٍ مِن نَجْوَاهُم إِلَّا مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوْفٍ أَو إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[١] [٢].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٤.

(٢) المرجع السابق، ج١٦، ص ٥٥٧.

السيّدة الزهراء عليها السلام

كانت عليها السلام في دائرة اهتمامها بِعَلاقتها باللّه تعالى، تدعو للمؤمنين والمؤمنات، ولا تدعو لنفسها، وحين يسألها ولدها عن سبب ذلك تقول:

«**الجار ثمّ الدار**»[١].

وكانت عليها السلام مثال الزوجة الكاملة لأمير المؤمنين عليه السلام، وكانت في بيتها تطحن وتعجن وتخبز[٢]، وقد ورد عن الإمام عليّ عليه السلام «**أنّها طحنت بالرَّحى حتّى مَجَلَتْ يداها وكسَحَت البيت حتّى اغبرَّت ثيابُها، وأوقدت النار تحت القدر حتّى دَكَنَتْ ثيابها**»[٣]، **وأنّها استقت بالقِربة حتّى أثّرت في صدرها**[٤]، **وكانت عليها السلام تقوم بدورها الاجتماعيّ التبليغيّ فتنشر أحاديث أبيها صلى الله عليه وآله وسلم حتّى سميت بالمحدِّثة.**

(١) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج١٨، ص ٦٣.
(٢) المرجع السابق، ص ١١١.
(٣) المرجع السابق، ص ٦٣ (مَجَلَت أي أثخن جلدها).
(٤) المرجع السابق، ص ٦٤.

الإمام الحسن عليه السلام

عُرِفَ الإمامان الحسنان عليهما السلام بدورهما الاجتماعيّ الإصلاحيّ ودعوة الناس إلى الحقّ، وهما صغيران، وهذا ما يبدو واضحاً فيما رُوِي أنّهما رأيا أعرابيّاً يتوضّأ بشكل خاطىء، فتقدّما وطلبا منه أن يُشرف على وضوئيهما ليعرفا أيّ الوضوءين أحسن!

فقال الحسين عليه السلام للأعرابيّ: أيُّنا يحسن الوضوء؟

فأجاب الأعرابيّ: **«كلاكما تحسنان، روحي لكما الفداء، ولكن أنا الذي لا أحسنه»**[1].

وفي الحياة الاجتماعيّة للإمام الحسن عليه السلام ورد أنّه قاسَمَ اللّه ماله مرّتين حتّى إنّه كان يعطي النعل ويمسك النعل، ويعطي الخُفّ ويمسك الخُفّ[2].

ونقل العلّامة المجلسي في البحار أنّ الإمام

(١) التستري، جعفر، الخصائص الحسينية، تحقيق جعفر الحسيني، قُمّ، منشورات أنوار الهدى، ص ١٧١.
(٢) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج١٨، ص ٢٤٣.

الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ ذات يوم، اغتسل وخرج من داره في حُلَّة فاخرة، وبِزَّةٍ طاهرة ونَضْرةُ النعيم تُعرف في أطرافه، وقاضي القدر قد حكم أنّ السّعادة من أوصافه، ثمّ ركب بغلة فارهة... فعرض له في طريقه من محاويج اليهود... قد أنهكته العِلّة، وارتكبته الذّلّة، وأهلكته القِلّة... فاستوقف الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال: يا ابن رسول اللّه، أنصِفْني، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ : في أيّ شيء؟

فقال: جدُّك يقول:

«الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر».

وأنت مؤمن وأنا كافر، فما أرى الدنيا إلّا جنّة تتنعمّ بها، وتستلذُّ بها، وما أراها إلّا سجناً لي قد أهلكني ضَرُّها، وأتلفني فقرها.

فأجابه الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«يا شيخ، لو نظرت إلى ما أعدَّ اللّه لي وللمؤمنين في الدار الآخرة ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت،

لعلمتَ أنّي قبل انتقالي إليه في هذه الدنيا في سجن ضَنْك، ولو نظرت إلى ما أعدَّ الله لك ولكلّ كافر في الدار الآخرة من سعير نار الجحيم، ونَكالِ العذاب المقيم، لرأيت أنّك قبل مصيرك إليه الآن في جنّة واسعة، ونعمة جامعة»[١].

الإمام الحسين عليه السلام

كان عليه السلام ساعياً في قضاء حوائج الناس على مشاكلهم ويسدّد ديونهم[٢] ويتصدق على فقرائهم حتّى رُوِي أنّه وُجِد على ظهره عليه السلام يوم الطّفّ أثَرٌ، فسألوا الإمام زين العابدين عليه السلام عن ذلك فقال:

«هذا ممّا كان ينقل الجِراب على ظهره إلى منازل الأرامل وَالْيَتَامَى والمساكين»[٣].

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٧ – ٢٤٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٧٦.
(٣) المرجع السابق، ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

وكان معروفاً أنّه أكرم الناس، وكان ينشدُ - فيما نسب إليه:

إذا جادَتِ الدنيا عليك فجد بها على الناس طرًّا قبل أن تتفلَّتِ

فلا الجود يُفنيها إذا هي أقبلتْ ولا البخلُ يُبقيها إذا ما تولَّتِ(١)

وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ يخضّب لحيته الشريفة.

وقد ورد عن الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«أنه قتل وهو مختصِبٌ بالوَسْمة»(٢).

نكتفي بهذا تاركين معرفة تفاصيل الحياة الاجتماعيّة لأهل الكساء ولسائر أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ للكتب التي فصَّلت في ذلك.

النتيجة = الموازنة قاعدة السير والسلوك

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٧

(٢) المرجع السابق، ص ٣٨٥. (والوسمة: نبات طيّب الرائحة، يُخْتَضَبُ بورقِه).

ممّا تقدّم نفهم بوضوح أنّ الإسلام دعا إلى الاهتمام بأمرين معاً دون التحيّز لأحدهما دون الآخر، وهما:

١ - المعنويّة الفرديّة. ٢ - الحياة الاجتماعيّة.

فالموازنة بين المعنويّة الفرديّة والحياة الاجتماعيّة قاعدة أساسيّة في السير إلى الله والسلوك في طريقه.

وتنطلق قاعدة الموازنة هذه من آفتين قد توجدان في داخل الإنسان.

الآفة الأولى: سماكة جدار المادّة في الإنسان فيرقّقه الاهتمام بالمعنويّة الفرديّة.

الآفة الثانية: ضِيقُ أفق النفس الإنسانيّة عن مصالح غيرها. وعدم الاهتمام إلّا بمصالحها هي، فيوسعه من خلال الاهتمام بالحياة الاجتماعيّة وخدمة الآخرين.

قاعدة الموازنة في القرآن الكريم

عند ملاحظة مجموع الآيات المتقدّمة تظهر الموازنة بين المعنويّة الفرديّة والحياة الاجتماعيّة كقاعدة قرآنيّة واضحة، ومع ذلك نذكر هنا ما جمع بين هذين الأمرين في سياق واحد، فقد قال تعالى:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلا﴾[1].

فاللّيل يناسب الخَلْوة مع الله تعالى، وتعزير الجانب الروحيّ عند الإنسان، بينما النهار يناسب السَّبْحَ في المجتمع، وفي سائر أعمال الإنسان الدنيويّة والآخرويّة.

قاعدة الموازنة في الأحاديث الشريفة

بالرغم من أنّ الروايات السابقة توضح قاعدة الموازنة هذه، إلّا أنّا نعرض رواية جمعت بينهما في سياق واحد، وهي ما ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام:

«خصلتان من كانتا فيه وإلّا فأعْزَبَ، ثمّ أعزَبَ، ثمّ أعزَبَ

قيل: وما هما: قال:

١ - الصّلاة في مواقيتها والمحافظة عليها.

٢ - والمواساة»[2].

(١) سورة المزَّمِّل، الآيتان: ٦ - ٧.

(٢) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج٨٣، ص ١٢.

فالصّلاة في وقتها مثال للمعنويّة الفرديّة، والمواساة مثال للحياة الاجتماعيّة وخدمة الآخرين.

الموازنة في حياة الرسول الأكرم ﷺ

إنّ حياة النبيّ الأعظم ﷺ مليئة بالشواهد الدالّة على مراعاته الموازنة.

ومن تلك الشواهد ما ورد عن الإمام الحسين عليه السلام:

«سألت أبي عن دخول النبيّ ﷺ فقال: كان دخوله لنفسه مأذوناً له في ذلك، وكان إذا آوى إلى منزله جزَّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءاً للّٰه عزَّ وجلَّ، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثمّ جزَّءُ جزأه بينه وبين الناس، فيرُدُّ ذلك على العامّة والخاصّة، ولا يدّخر عنهم شيئاً»[١].

(١) الطبرسي: مكارم الأخلاق،ص ١٣.

الإمام عليّ عليه السلام سيّد الموازنة في القرآن

لعلَّ أروع تطبيق عرضه القرآن الكريم لقاعدة الموازنة المعنويّة الفرديّة وخدمة الآخرين، هو ما أنزله اللّه تعالى في أمير المؤمنين عليه السلام حينما تصدَّق بخاتمه وهو يصلّي.

وفي تفصيل هذه الحادثة العظيمة ذكر الشيخ الطبرسي في مجمع البيان بإسناده عن عباية بن ربعي قال:

بينما عبد اللّه بن عبّاس جالس على شفير زمزم يقول: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إذ أقبل رجل متعمِّم بعمامة...

فجعل ابن عباس لا يقول: قال رسول اللّه، إلّا قال الرجل: قال رسول اللّه.

فقال ابن عباس: سألتك باللّه من أنت؟

فكشف العِمامة عن وجهه وقال:

«يا أيُّها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أُعرِّفه بنفسي، أنا جُنْدُب بن جنادة البدريّ أبو ذرّ الغفاريّ، سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بهاتين وإلا فَصَمَّتا،

ورأيته بهاتين وإلا فعَمِيَتا، يقول:

عليٌّ قائد البررة، وقاتل الكَفَرة، منصور من نصره، مخذول من خذله».

أمّا أنّي صلّيت مع رسول اللّه ﷺ يوماً من الأيّام صلاة الظهر، فسأل سائل في المسجد، فلم يعطه أحد شيئًا، فرفع السائل يده إلى السماء وقال:

اللّهمَّ اشهد أنّي سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئاً.

وكان عليٌّ عليه السلام راكعاً فأومأ بخنصره اليمنى إليه، وكان يتختّم فيه، فأقبل السائل حتّى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعد رسول اللّه ﷺ، فلمّا فرغ النبيّ ﷺ من صلاته، رفع رأسه إلى السماء وقال:

اللّهمَّ إنّ أخي موسى سألك فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي* وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي*وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي

* ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ **فأنزَلْتَ عليه قرآناً ناطقاً** ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، **اللَّهمَّ وأنا محمّد نبيُّك وصفيُّك، اللَّهمَّ فاشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً اشْدُدْ به ظهري**».

قال أبو ذَرّ:

فوالله ما استتمَّ رسول الله الكلمة حتّى نزل عليه جبرائيل من عند الله فقال: يا محمّد، إقرأ.

قال ﷺ وما أقرأ؟

قال إقرأ:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[١].

---

(١) الطبرسي، الفضل بن الحسن مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق محلاتي والطباطبائي، ط ١، دار المعرفة، ١٩٨٦م، ج٣، ص ٣٢٤ – ٣٢٥.

فالإمام عليّ عليه السلام في هذه الحادثة جمع بين عملين عظيمين في وقت واحد، هما: الصّلاة والتصدُّق على الفقير، ليرسم قاعدة الموازنة في قُمَّة صورها. فالاختلاء مع اللّه تعالى والتوجُّه إليه بقُمَّة المعنويّة القلبيّة لم يَصْرِفا عليّاً عن العمل الاجتماعيّ وخدمة الآخرين. وقد حيَّرت هذه الحادثة من لم يلتفت إلى قيمة الموازنة في هذا العمل فتعجَّب من فعل أمير المؤمنين عليه السلام هذا.

فمن المعروف أنّ الإمام عليّاً عليه السلام كان في صلاته يستغرق في اللّه إلى حدٍّ رُوِي أنّه وقع في رجله نَصْلٌ، فلم يكن إخراجه، فقالت السيّدة فاطمة عليها السلام:

«أخرجوه في حال صلاته، فإنّه أثناء الصّلاة لا يحسُّ بما يجري عليه، فأُخْرِجَ وهو في صلاته»[1].

من هنا ورد أنّ ابن الجوزي اعترض على بعض الخطباء بأنّ عليّاً عليه السلام مع استغراقه الكامل في ذات اللّه، لدى

(١) الكاشاني، محسن، المحجّة البيضاء، تعليق الغفاري، ط ٢، قُمّ، انتشارات إسلامي، ج١، ص ٣٩٧ - ٣٩٨.

الصّلاة، كيف التفت إلى السائل وأعطاه خاتمه!!

فأجاب الخطيب بالبداهة:

يَسْقِي ويَشْرَبُ لا تُلهيهِ سَكْرَتُه عن النديم، ولا يلهو عن الكاسِ

أطاعَهُ سُكْرُهُ حتّى تمكَّنَ من فعل الصُّحاةِ فهذا أفضلُ الناسِ[١]

نعم، إنّ القيمةَ الكبرى لعمل أمير المؤمنين عليه السلام والذي استنزل آية الولاية الكبرى هي أنّه جمع بين قُمّة التوجّه إلى الله تعالى، في حالته المعنويّة، وبين قضاء حاجة الفقير بالتصدُّق عليه.

الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في مواجهة الإفراط في المعنويّات

ذكرنا، سابقاً، المسلك المفرط في المعنويّات والمنحاز إليها على حساب الحياة الاجتماعيّة. ويبدو أنّ هذا المسلك كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي واجهه بشدّة تبدو من خلال الروايات التالية:

(١) الحائري، كاظم، تزكية النفس، ص ٩٩.

١ - عن الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال:

«إنّ جماعة من الصحابة كانوا حرّموا على أنفسهم النساء، والإفطار بالنهار، والنوم باللّيل، فأخبرت أمُّ سَلَمة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فخرج إلى أصحابه، فقال: أترغبون عن النساء؟! إنّي آتي النساء، وآكل بالنهار، وأنام باللّيل، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي...»(١).

٢ - عن الإمام الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال:

«جاءت امرأة عثمان بن مظعون إلى النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقالت: يا رسول الله إنّ عثمان يصوم النهار ويقوم اللّيل. فخرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مغضباً يحمل نعليه حتّى جاء إلى عثمان، فوجده يصلّي، فانصرف عثمان حين رأى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال له: يا عثمان، لم يرسلني الله بالرهبانيّة، ولكن بعثني بالحنيفيّة

(١) الحُرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة، تحقيق ونشر مؤسّسة آل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لإحياء التراث، ط ١، ج٢٠، ص ٢١، حديث ٩.

السّمْحة، أصوم وأُصلّي وألمس أهلي، فمن أحبّ فطرتي فليستنَّ بسنّتي، ومِن سنّتي النكاح»[١].

٣ - عن الصّادق عليه السلام قال:

«إنّ ثلاث نسوة أتين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت إحداهنّ: إنّ زوجي لا يأكل اللّحم، وقالت الأُخرى: إنّ زوجي لا يشمّ الطيب، وقالت الأخرى: إنّ زوجي لا يقرب النساء. فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجرّ رداءه حتّى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: ما بال أقوام من أصحابي لا يأكلون اللّحم، ولا يشمّون الطيب، ولا يأتون النساء؟ أما إنّي آكل اللّحم وأشمّ الطيب، وآتي النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي»[٢].

(١) المرجع السابق، ج٢٠، ص ١٠٦ - ١٠٧، الحديث ١.
(٢) المرجع السابق، ج٢٠، ص ١٠٧، الحديث ٢.

الإمام علي عليه السلام في مواجهة الإفراط في المعنويّات

دخل الإمـام عليّ عليه السلام في البصرة على العلاء بن زياد الحارثيّ، وهو من أصحابه، يعوده، فلمّا رأى سَعَةَ داره قال عليه السلام :

«ما كنت تصنع بسعة هذه الدار وأنت إليها في الآخرة، كنت أحوج؟ وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة تَقْري فيها الضيف، وتصل فيها الرَّحِم، وتُطلع منها الحقوق مطالعها، فإذاً أنت قد بلغت بها الآخرة».

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، قال عليه السلام وما له؟ قال: لبس العباءة وتخلّى عن الدنيا. قال عليه السلام : عليَّ به، فلمّا جاء قال عليه السلام :

«يا عُدوَّ نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمتَ أهلك وولدك؟ أترى الله أحلّ لك الطيّبات، وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك!».

قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك.

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«ويحَكَ إنّي لستُ كأنت، إنَّ اللّه - تعالى - فرضَ على أئمَّة العَدْلِ أن يُقَدِّروا أنفسَهم بِضَعَفَةِ الناس؛ كي لا يتبيَّغَ بالفقيرِ فقْرُه»[1].

زهد سلمان

ويبدو أنّ هذا النمط من التفكير واجه سلمان الفارسيّ المحمّديّ حينما علم البعض أنّ سلمان كان إذا أخذ العطاء من بيت المال رفع منه قوته لسنته حتّى يحضر عطاؤه من قابل، فقيل له: يا أبا عبد اللّه، أنت في زهدك تصنع هذا؟!! وإنك لا تدري لعلك تموت اليوم أو غداً.

فكان جوابه: «ما لكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم عليَّ الفناء؟ أو ما علمتم، يا جهلة، أنّ النفس تلتاث على

(١) الحائري، تزكية النفس، ص ١١٥ - ١١٦.

صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما يُعْتَمَدُ عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها أطمأنت؟»[١].

نتيجة البحث

الحالة	رأي الإسلام
١ ـ التفرُّغ للاختلاء مع اللّه والاهتمام بالحالات المعنويّة الفرديّة والابتعاد عن الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة	مرفوض
٢ ـ الاهتمام بالحياة الاجتماعيّة وشوؤن الناس وترك الحالات المعنويّة الفرديّة	مرفوض
٣ ـ العمل على أمرين: تصفية الباطن بالمعنويّات والاهتمام بالحياة الاجتماعيّة والسياسيّة	هو السير الصحيح

(١) الحائري، كاظم، تزكية النفس، ص ١٢٠.

تطبيقات

الحالة الأولى

قد يقول البعض: إنّ علاج الآخرين إنّما يصحُّ لي حينما لا يضرُّ بحالتي العرفانيّة أو يزاحمها، فإنّ حصل الضرر أو المزاحمة فإنّي أكتفي بنفسي، ولا أتدخّل في علاج الآخرين، والدليل على ذلك قوله تعالى:

﴿...عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[1].

الجواب: إنّ هذا القول يتناقض مع الآيات الآمرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعنى الآية السابقة هو عدم التحسُّر على الذين لا ينفعهم الإرشاد والهداية، وذلك من قبيل قوله تعالى:

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[2].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٨.

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[١].

الحالة الثانية

قد يقول البعض: طالما أنّ الإسـلام منع الترهبن، فيصحّ أن أتنعمَّ بالدنيا بقدر ما أريد من دون أن يمنع هذا من سلوكي وسيري في سبيل اللّٰه تعالى.

الجواب: صحيح أنّ المؤمن يحقّ له أن يتمتّع بالدنيا، لكن عليه أن ينتبه إلى الأمور التالية:

الأوّل: يجب أن يـؤدي ما عليه من حقوق وواجبات ويلتفت إلى عدم ارتكاب أيّ محرَّم.

الثاني: ينبغي أن لا يغفل عن مواساة الآخرين في ما أنعم اللّٰه به عليه.

الثالث: ينبغي أن لا يصل تنعُّمُه بالنّعم المحلّلة إلى مستوى تعلّق القلب بها فيأسى على ما فاته، بل ينبغي أن

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٧ (انظر: الحائري، كاظم، تزكية النفس، ص ١٢٥).

يكون دائماً في حالة الرّضا بقضاء اللّه في السرَّاء والضرَّاء ليكون محقّقاً للهدف من قوله تعالى:

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[١].

فليس الزهد أن لا يملك الإنسان شيئاً، إنَّما الزهد أن لا يملكه شيء. إنّه صراع بين المالك والمملوك، ودعوة اللّه للإنسان أن يكون هو المالك لشعور حقيقيّ أن الملك الواقعيّ هو للّه وحده.

وللبحث تتمّة إقرأها في كتابنا

«برنامج السير والسلوك»

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣ (انظر: الحائري، تزكية النفس، ص ١٢٣).

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

(أ)

٢. أصول الفقه، محمّد رضا المظفّر، ط ٣، قُمّ، إسماعيليان.

٣. أحكام الاعتكاف، جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة، بيروت، ٢٠٠٣م.

٤. الأربعون حديثاً، روح اللّه الموسوي الخمينيّ، تعريب محمّد الغروي، (لا. ط)، قُمّ، دار الكتاب الإسلاميّ، (لا. ت).

٥. الأنبياء، عبد الصاحب الحسني، ط ١، بيروت، الأعلمي.
٦. الإمامة، مرتضى المطهّري، ترجمة عليّ كسّار، ط ١، قُمّ، مؤسّسة أُمّ القرى.
٧. أبعاد الحجّ في كلام الإمام الخمينيّ، جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة، ط ١، بيروت، ١٤١٢هـ.

(ب)

٨. بحار الأنوار، محمّد باقر المجلسي، ط ٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٣م.
٩. بحار الأنـوار، محمّد باقر المجلسي، تحقيق محمود درياب، ط ١، بيروت، دار التعارف، ٢٠٠١ م.
١٠. بصائر الدرجات، محمّد بن الحسن بن فروج الصفّار، تعليق محسن كوجه باغي التبريزي، قُمّ، بصيرتي، ١٤٠٤هـ.

(ت)

١١. تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون، ط ٢، طهران، مركز النشر في مكتب الإعلام الإسلاميّ، ١٤٠٨هـ.

١٢. تزكية النفس، كاظم الحائري، ط ١، قُمّ، مؤسّسة الفقه، ١٤٢١هـ.

(ج)

١٣. الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، محمّد بن عيسى بن سورة، تحقيق كمال يوسف الحوت، بيروت، منشورات دار الكتب العلميّة.

(ح)

١٤. حقيقة مصحف فاطمة، أكرم بركات، ط ١، بيروت، دار الصفوة، ١٩٩٧م.

١٥. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد اللّه الأصفهاني، ط ١، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤٠٩هـ.

١٦. حديث الثقَلَيْن، القاهر، دار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة.

(خ)

١٧. الخصائص الحسينية، جعفر التستري، تحقيق جعفر الحسيني، قُمّ، أنوار الهدى.

(د)

١٨. دائرة معارف القرن العشرين، محمّد فريد وجدي، بيروت دار الفكر.

(ذ)

١٩. ذلكم رسول اللّٰه، حسن الموسوي، بيروت، مؤسّسة الفكر الإسلاميّ، ١٤١١هـ.

(ر)

٢٠. رسالة في السير والسلوك، المنسوبة لمحمّد مهدي بحر العلوم، شرح وتعليق حسن المصطفوي، ترجمة لجنة الهدى، بيروت، دار الروضة، ١٤١٤هـ.

(س)

٢١. سيرة الأئمّة الإثني عشر، هاشم الحسني، قُمّ، الشريف الرضيّ، ١٤٠٩هـ.

(ص)

٢٢. صلاة اللّيل، غلام رضا عرفانيان، ط ٣، قُمّ،...، ١٤١٠هـ.

(ف)

٢٣. الفتاوى الواضحة، محمّد باقر الصدر، ط ٦، بيروت، دار التعارف.
٢٤. الفصول المائة في حياة أبي الأئمّة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ، أصغر ناظم زادة القُمّي، قُمّ، انتشارات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ١٤١١هـ.
٢٥. فرائد السمطين، إبراهيم بن محمّد الجويني الخراساني، تحقيق محمّد باقر المحمودي، ط ١، بيروت، منشورات مؤسّسة المحمودي.
٢٦. في رحاب نهج البلاغة، مرتضى المطهّري، ط١، بيروت، الدار الإسلاميّة، ١٤١٣هـ.

(ق)

٢٧. قصص الأنبياء، قطب الدين الراوندي، تحقيق اليزدي، ط ١، مشهد، مجمع البحوث الإسلاميّة ١٤٠٩هـ.
٢٨. قصص الأنبياء، نعمة الله الجزائري، ط ٨، بيروت، الأعلمي.

(ك)

٢٩. كشف اليقين، في فضائل أمير المؤمنين، الحسن بن يوسف الحلّي، تحقيق عليّ آل كوثر، ط ١، قُمّ، مجمع إحياء الثقافة الإسلاميّة.

٣٠. كشف الغُمَّة في معرفة الأئمّة، عليّ بن عيسى الأربلي، بيروت، منشورات دار الكتاب الإسلاميّ.

٣١. كنزل العمّال، المتّقي بن حسام الدين الهندي، بيروت، منشورات مؤسّسة الرسالة.

٣٢. كيف تجعل ولدك صالحاً، أكرم بركات، ط ١، بيروت، دار الولاء، ٢٠٠٠م.

٣٣. الكلام العرفان، مرتضى المطهّري، تعريب عليّ خازم، ط ١، بيروت، الدار الإسلاميّة ١٩٩٢م.

٣٤. كنز الدقائق، محمّد المشهدي، تحقيق ونشر مؤسّسة النشر الإسلاميّ، قُمّ، ١٤٠٧هـ.

٣٥. كحل البصر في سيرة سيّد البشر، عباس القُمّي، قُمّ، انتشارات الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ١٤٠٤هـ.

(ل)

٣٦. لماذا نقلّد؟ كيف؟ ومن؟ أكرم بركات، ط ٢، بيروت، دار الولاء، ٢٠٠٣م.
٣٧. لآلىء الأخبار، محمّد نبيّ التوسيركاني، (لا. ط) قُمّ، انتشارات إيران (لا. ت).

(م)

٣٨. مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق محلّاتي والطباطبائي، ط ١، بيروت، دار المعرفة، ١٩٨٦م.
٣٩. معجم مقاييس اللّغة، أحمد بن فارس، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، (لا. ط)، قُمّ، مكتب الإعلام الإسلاميّ، ١٤٠٤هـ.
٤٠. مجمع البحرين، فخر الدين الطريحي، تحقيق أحمد الحسيني، ط٢، بيروت، مؤسّسة الوفاء، ١٩٨٣م.
٤١. معرفة القرآن، مرتضى المطهّري، ترجمة جعفر صادق الخليلي، بيروت، دار التعارف، (لا. ت).

٤٢. مُنية المُريد في آداب المفيد والمستفيد، تحقيق أحمد الحسيني، بيروت، دار المرتضى، ١٩٩٧م.

٤٣. منهجية الثورة، روح الله الموسوي الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ.

٤٤. محاضرات عاشورائية، أكرم بركات، ط ١، بيروت، دار الولاء، ٢٠٠٠م.

٤٥. المسترشد في إمامة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، محمّد بن جرير بن رستم الطبري الإمامي، تحقيق أحمد المحمودي، ط ١، قُمّ، مؤسّسة الثقافة الإسلاميّة، ١٤١٥هـ.

٤٦. مقتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، عبد الرزّاق الموسوي المقرّم، قُمّ، دار الثقافة، ١٤١١هـ.

٤٧. المحجّة البيضاء، محسن الكاشاني، تصحيح وتعليق عليّ أكبر الغفاري، ط٢، قُمّ، دفتر انتشارات إسلامي.

٤٨. ميزان الحكمة، محمّدي الريشهري، بيروت، الدار الإسلاميّة، ١٩٨٥م.

(و)

٤٩. وسائل الشيعة، محمّد بن الحسن (الحُرّ العاملي)، تحقيق الشيرازي، ط ٥، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣هـ.

(ي)

٥٠. ينابيع المودّة، سليمان بن إبراهيم القندوزي، بيروت، مؤسّسة الأعلمي.

الفهرس

صدر للمؤلف

١. حقيقة الجفر عند الشيعة، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٢. حقيقة مصحف فاطمة عند الشيعة، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر. حائز على جائزة أفضل كتاب لعام ٢٠٠٣م، في مهرجان الولاية الدوليّ في إيران.

٣. ولاية الفقيه، بين البداهة والاختلاف، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر. رسالة ماجستير حازت على درجة ممتاز، مع التنويه والتوصية بالنشر.

٤. دروس في علم الدراية، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر. معتمد في المناهج الدراسية الحوزويّة.

٥. وليالٍ عشر (من وحي عاشوراء)، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٦. برقية الحسين عليه السلام، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسيّة:

The Telegram of Hussein (pbuh).

Le Télégramme d’Al-Houssein (Qu’Allah le salue).

٧. وأتممناها بعشر (من وحي عاشوراء)، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٨. المسائل المصطفاة في أحكام الطهارة والصلاة فوز دو ايغواسو.

٩. أحكام النساء. فوز دو ايغواسو.

١٠. التبليغ من وحي التجربة، قمّ.

١١. Paulo em busca da verdade («باولو» الباحث عن الحقيقة - باللغة البرتغالية).

١٢. A ORACAO NO ISLAM «Assalat» (الصلاة في الإسلام باللغة البرتغالية).

١٣. مختصر الواجبات في الإسلام (UM RESUMO DOS DEVERES NO ISLAM)

١٤. خيوط القبعة، بيروت، دار الصفوة.

١٥. حائك القبعة (الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين)، بيروت، دار الصفوة.

١٦. التكفير، ضوابط الإسلام وتطبيقات المسلمين، دار الأمير للثقافة والعلوم.

١٧. قافلة البشرية، من سفينة نوح إلى دولة المهديّ عجّل الله فرجه الشريف، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

١٨. هذا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

١٩. محاضرات في الثقافة الإسلامية بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مجموعة يسألونك، وتضم:

٢٠. يسألونك عن اللّه، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسيّة:

They ask you about Allah.

Ils t’interrogent à propos Allah.

٢١. يسألونك عن الأنبياء عليهم السلام، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسية:

They ask you about prophets

Ils t›interrogent sur les prophetes

٢٢. يسألونك عن الأئمة عليهم السلام، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسية:

They ask you about Imams.

ils t›interrogent sur les imams

٢٣. يسألونك عن الوليّ، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٢٤. يسألونك عن التقليد، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسيّة (مركز نون للتأليف والترجمة):

They ask you about Imitation.

Il t'interrogent sue le Taqlid.

٢٥. يسألونك عن القبر، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية:

They ask you about Death & the Barrier (The Call for Departure)

٢٦. يسألونك عن القيامة، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسية:

They Ask You about Resurrection

Ils t›interrogent sur la resurrection

مجموعة تعارفوا، وتضم:

٢٧. دليل العروسين بين الخطوبة والزفاف، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية:

Bride & Bridegroom Manual From Engagement to Marriage

٢٨. سعادة الزوجين في ثلاث كلمات، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٢٩. ٣ حقوق لحياة زوجيّة ناجحة، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٠. كيف تجعل ولدك صالحًا؟ بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣١. كيف نتواصل مع الناس؟ بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٢. كيف نبني مجتمعًا أرقى؟ بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٣. آية الوصايا العشر، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مجموعة يزكّيهم، وتضم:

٣٤. ميزان السير والسلوك، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.
(بين يدي القارىء).

٣٥. برنامج السير والسلوك، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٦. هكذا تكون سعيدًا، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.
مترجم إلى الإنكليزية: Finding Happiness.

٣٧. كيف ترجع كما ولدتك أمك؟ بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٨. شهر اللّه آدابه - مناسباته - أولياؤه، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٩. لا تَقرَبُوا، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٤٠. كيف نتواصل مع اللّه، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

يمكنك تصفح جميع هذه الكتب وغيرها
على موقع سراج القائم عجّل الله فرجه الشريف
www.sirajalqaem.com